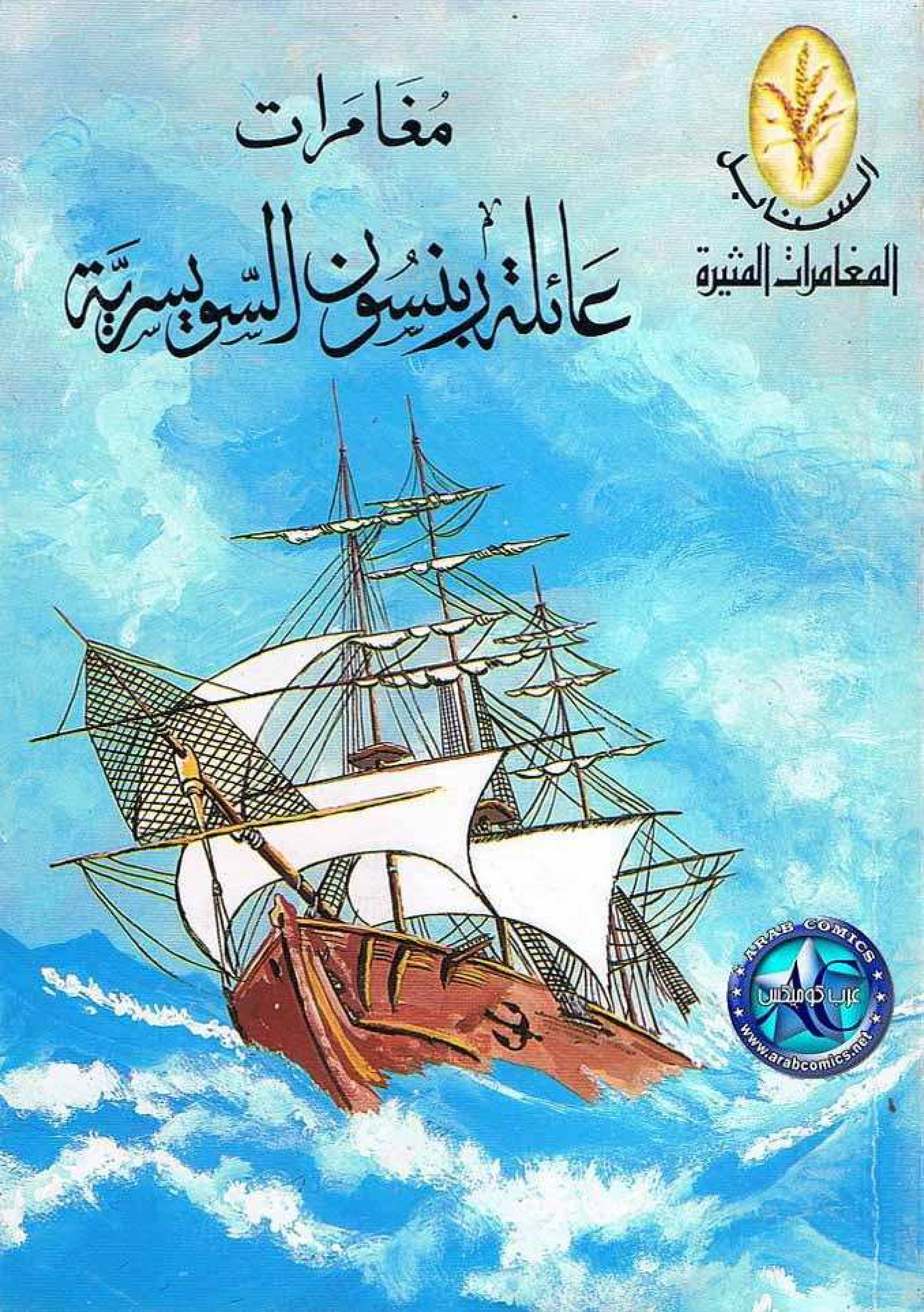


لبنان
المغامرات المثيرة
مُغَامَرَات
عَائلة رُبنسُون السّويسريّة
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع : ٧٥١٣ / ١٩٩٣

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠١٤١ - ٥

طبع في دار نوبار للطباعة

السنابل
المغامرات المثيرة

مغامرات عائلة روبنسون السويسرية



تأليف : جوناثان ڤيس

نقلها إلى العربية : يعقوب الشاروني

رسوم : إيهاب وصفي

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

الفصل الأوّل

السَّفينةُ تتحطَّمُ

دامتِ العاصِفَةُ ستَّةَ أيامٍ ، وَعجزَ رُبّانُ السَّفينةِ عَنْ تَحْديدِ المكانِ الّذي قَذَفَتْنا إليْهِ الأمْواجُ ، وَأيْقنَ رُكّابُ السَّفينةِ أنَّهُمْ هالِكونَ .

وَتَجمَّعَ أبْنائي الأرْبَعَةُ الصِّغارُ حَوْلي مَعَ أمِّهِمْ ، وَالْتَصقوا بي ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « إنَّ اللهَ ، يا أبْنائيَ الأعِزّاءَ ، قادرٌ على إنْقاذِنا .»

عِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ صَيْحَةً ارْتفَعَتْ فَوْقَ صَوْتِ العاصِفَةِ : « أرْضٌ ! أرْضٌ !» ثُمَّ اصْطَدَمَتِ السَّفينَةُ بِالصُّخورِ ، وَغَشيَتْنا الأمْواجُ ؛ فَصاحَ الرُّبّانُ : « لا أمَلَ . السَّفينَةُ تَحطَّمَتْ . أنْزِلوا قَوارِبَ النَّجاةِ .»

انْزَعَجَ أوْلادي ، فَقُلْتُ لَهُمْ : « تَشَجَّعوا ، يا أوْلادي ؛ فَالأرْضُ لَيْسَتْ بَعيدَةً . سَيَهْدينا اللَّهُ إلى وَسيلَةٍ نَنْجو بها . سَأَصْعَدُ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، وَأرى ما الّذي نَسْتَطيعُ أنْ نَفْعَلَهُ .»

صَعِدْتُ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، فَوَجَدْتُ كُلَّ الزَّوارِقِ في الماءِ ، وَقَدْ

غادَرَ السَّفينَةَ كُلُّ مَنْ كانَ عَلَيْها وَنَسونا . وَمَدَدْتُ بَصَري نَحْوَ الأرْضِ . وَكانَ مُقَدَّمُ السَّفينَةِ قَدِ انْحشَرَ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ ، فَبَقيَتْ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ .

وَعُدْتُ إلى أسْرَتي قائلاً : « كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . إنَّ جُزْءاً مِنَ السَّفينَةِ لا يَزالُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ . وَغَداً سَتهْدَأُ الأمْواجُ ، وَيُصْبِحُ في اسْتِطاعَتِنا الوُصولُ إلى الشّاطِئِ .»

وَ حَلَّ اللَّيْلُ ، وَأعَدَّتْ زَوْجَتي لَنا طَعامًا ، ثُمَّ ذَهَبَ أوْلادُنا للنوم وَبَقَيتُ أنا وَزَوْجَتي ساهِرَيْنِ . وَطَلَعَ النَّهارُ ، وَ هَدَأَتْ الرِّياحُ ، وَسَكَنَتَ الأمْواجُ ، وَصفَتِ السَّماءُ ، وَظَهَرَ الشّاطِئُ غَيْرَ بَعيدٍ عَنّا .

قُلْتُ لِلأوْلادِ : « هَيّا نَتَجَوَّلْ في السَّفينَةِ ، وَنَرَ ما يُمْكِنُ العُثورُ عَلَيْهِ مِنْ أشْياءَ قَدْ تُساعِدُنا في الوُصولِ إلى الشّاطِئِ .» وَذَهَبْتُ إلى المخْزَنِ ؛ لأعْرِفَ مِقْدارَ ما بَقِيَ مِنْ ماءٍ وَطَعامٍ يُمكِنُ أنْ نَنْتَفِعَ بِهِ .

وَعادَ فِرِتْز ، أكْبَرُ أبْنائي، وَقَدْ أحْضَرَ مَعَهُ بَنادِقَ وَبارودًا وَطَلَقاتٍ . أمّا إرْنِسْت ، ثاني الأبْناءِ ، فَقَدْ وَجَدَ صُنْدوقًا بِهِ أدَواتُ نِجارَةٍ : مِطْرَقَةٌ ، وَكَمِّيَّةٌ كَبيرَةٌ مِنَ المَسامِيرِ ، وَمِنْشارٌ ، وَسِكّينٌ كَبيرَةٌ ، وَعَدَدٌ مِنَ السَّكاكينِ الصَّغيرَةِ ، وَبَعْضُ الأشْياءِ الأُخْرى .

كانَ الصُّنْدوقُ ثَقيلاً جِدًّا ، لكِنَّ فِرِتْز ساعَدَ أخاهُ في حَمْلِهِ إلَيْنا.

أمّا جاك ، ابْني الثّالِثُ ، فَقَدْ فَتَح بابَ غُرْفَةِ الرُّبّانِ ، فَقَفَزَ ناحِيَتَهُ كَلْبانِ كَبيرانِ أليفانِ ، فَقادَهُما إلَيْنا بِسُهولَةٍ .

وَأخيراً عادَتْ زَوْجَتي وَمَعَها الابْنُ الأصْغَرُ فرانْسيس ، وَأخْبَرَتْني بِما وَجَدَتْ قائِلَةً : « لَقَدْ وَجَدْتُ بَقَرَةً ، وَحِماراً ، وَمَعْزاً وَخَروفَيْنِ ، وَبِضْعَ دَجاجاتٍ ، وَعَدَداً مِنَ البَطِّ .»

قُلْتُ : « سَتَكونُ كُلُّ هَذِهِ الأشْياءِ مُفيدَةً ما عَدا الكَلْبَيْنِ ، فَسَيَأْكُلانِ كَثيراً جِدًّا .»

قالَ جاك : « وَلَكِنَّهُما ، يا أبي ، سَيُساعِدانِنا في قَنْصِ الحَيَواناتِ اللازِمَةِ لِطَعامِنا ، عِنْدَما نَصِلُ إلى الشّاطِئِ .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، لَكِنَّنا لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إلى الشّاطِئِ . يَجِبُ أنْ نُفَكِّرَ في طَريقَةٍ نَصِلُ بِها إلى هُناكَ . لا بُدَّ مِنْ صُنْعِ قارِبٍ أوْ زَوْرَقٍ . هَيّا نُحْضِرْ عَدَداً مِنَ البَراميلِ ، وَبَعْضَ ألواحِ الخَشَبِ .»

وَانْهَمَكْنا في العَمَلِ ، إلى أنْ صَنَعْنا قارِباً . وكانَ ثَقيلَ الوَزْنِ جِدًّا . وَصَنَعْنا صارِياً وَشِراعاً ، كَما وَجَدْنا بَعْضَ المَجاديفِ .

قُلْتُ : « سَنَرْفَعُ الصّارِيَ ، بَعْدَ أنْ نُنْزِلَ القارِبَ في الماءِ .»

سَألَني فِرِتْز : « وَلَكِنْ كَيْفَ نُنْزِلُهُ في الماءِ ؟»

أجَبْتُ : « يَجِبُ أنْ نَضَعَ تَحْتَهُ أشْياءَ يُمْكِنُ أنْ يَنْزَلِقَ فَوْقَها ، حَتّى يَصِلَ إلى الماءِ – أشْياءَ أسْطُوانِيَّةَ الشَّكْلِ ، قَدْ تَكونُ أعْمِدَةً خَشَبِيَّةً أوْ حَديدِيَّةً .»

وَأخيراً تَمَّ إعْدادُ كُلِّ شَيْءٍ . وَرَبَطْتُ حَبْلاً طَويلاً إلى القارِبِ الَّذي صَنَعْناهُ ، ثُمَّ رَبَطْتُ طَرَفَهُ الآخَرَ بِالسَّفينَةِ ، حَتّى لا تَحْمِلَ الأمْواجُ قارِبَنا بَعيداً ، ثُمَّ تَناوَلْنا الطَّعامَ ، وَاسْتَغْرَقْنا جَميعًا في نَوْمٍ هادِئٍ .

الفصل الثاني

الجزيرَةُ

اِسْتَيْقَظْنا مَعَ شُروقِ الشَّمْسِ ، وَقُلْتُ لأَوْلادي : « في البِدايَةِ ، يَجِبُ تَقْديمُ الطَّعامِ إلى الحَيَواناتِ . وَأَرْجو أَنْ نَسْتَطيعَ العَوْدَةَ فيما بَعْدُ إلى السَّفينَةِ ، لاصْطِحابِ تِلْكَ الحَيَواناتِ إلى الشّاطِئِ . أَمّا الآنَ فَعَلَيْنا أَنْ نَجْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أَنْ يُفيدَنا عَلى اليابِسَةِ .»

ثُمَّ جَمَعْنا البَنادِقَ وَالبارودَ وَالطَّلَقاتِ ، وَحَمَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا كيساً مَمْلوءاً بِالطَّعامِ ، كَما أَخَذْنا بَعْضَ أَوْعِيَةِ الطَّهْيِ ، وَالمِنْشارَ وَالمَساميرَ وَالسَّكاكينَ وَالفُئوسَ ، وَأَخَذْنا قُماشَ أَشْرِعَةٍ لِنَصْنَعَ مِنْهُ خَيْمَةً ، وَشِراعاً لِلْقارِبِ. وَ أَخَذْنا أَيْضاً الدَّجاجاتِ ، وَقُلْتُ : « أَمّا البَطُّ وَالكِلابُ ، فَيُمْكِنُ أَنْ تَسْبَحَ خَلْفَ القارِبِ .»

وَفي اللَّحْظَةِ الأَخيرَةِ ، ظَهَرَتْ زَوْجَتي تَحْمِلُ كيساً كَبيراً ، لَكِنّي لَمْ أَسْأَلْها ما الَّذي بِداخِلِهِ .

في البِدايَةِ ، أَخَذَ القارِبُ يَدورُ حَوْلَ نَفْسِهِ ، لَكِنْ بَعْدَ عِدَّةِ مُحاوَلاتٍ ، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ أُوَجِّهُهُ نَحْوَ الشّاطِئِ . وَأَثْناءَ اقْتِرابِنا مِنْهُ ، صاحَ فِرِتْز : « أُنْظُروا ، ها هِيَ ذي أَشْجارُ جَوْزِ الهِنْدِ . سَنَحْصُلُ عَلى ثِمارِ جَوْزِ الهِنْدِ لِنَأْكُلَها .»

وَكانَ البَطُّ يَسْبَحُ مُتَّجِهاً نَحْوَ خَليجٍ صَغيرٍ ، فَقُلْتُ : « إِنَّها تَعْرِفُ أَفْضَلَ مَكانٍ يُمْكِنُ أَنْ نَرْسُوَ فيهِ ، لِذَلِكَ سَأَتْبَعُها .» وَقادَنا البَطُّ إلى مَصَبِّ جَدْوَلٍ ، تَتَدَفَّقُ مِياهُهُ إلى الخَليجِ الصَّغيرِ . وَقَفَزَ الوَلَدانِ الكَبيرانِ إلى الأَرْضِ ، ثُمَّ ساعَدا جاك وفرانسيس حَتّى وَصَلا إلى الشّاطِئِ . وَ بَدَأْنا في تَفْريغِ حُمولَةِ القارِبِ مِنْ أَشْياءَ أَحْضَرْناها مَعَنا ، وَأَطْلَقْنا سَراحَ الدَّجاجِ . ثُمَّ قَطَعْتُ بَعْضَ الأَغْصانِ الطَّويلَةِ مِنَ الأَشْجارِ ، وَثَبَّتُّها في الأَرْضِ ، وَ وَضَعْتُ فَوْقَها قُماشَ الأَشْرِعَةِ ، وَ أَقَمْتُ خَيْمَةً .

قُلْتُ لِلأَوْلادِ : « وَالآنَ ، هَيّا اذْهَبوا لإِحْضارِ بَعْضِ الحَشائِشِ الجافَّةِ ؛ لاسْتِخْدامِها فِراشاً لَنا .»

وَبَيْنَما هُمْ يَقومونَ بِذَلِكَ ، جَمَعْتُ بَعْضَ الحِجارَةِ الكَبيرَةِ ، وَأَعْدَدْتُ مَكاناً نُشْعِلُ فيهِ بَعْضَ الأَغْصانِ الجافَّةِ . وَأَحْضَرَتْ زَوْجَتي وِعاءً مَمْلوءاً بِالماءِ مِنَ الجَدْوَلِ ، وَ وَضَعَتْهُ فَوْقَ النّارِ ، ثُمَّ أَخَذَتْ في

طَهْيِ وَجْبَةٍ ، وَ ساعَدَها في ذَلِكَ فرانْسيس الصَّغيرُ .

وَحَمَلَ فرِتز بُنْدُقِيَّةً ، وَانطَلَقَ عَلى طولِ مَجْرى الجَدْوَلِ . وَسارَ إرْنسْتُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ مُتَّجِهاً إلى اليَمينِ ، في حينَ اتَّجَهَ جاك إلى اليَسارِ ؛ لِيَبْحَثا عَنِ المَحارِ . أمّا أنا فَأخَذْتُ أنْقُلُ مَزيداً مِنَ الأشْياءِ الّتي بِالقارِبِ إلى الشّاطِئِ .

وَ عادَ إرْنسْت قائلاً : « لَقَدْ وَجَدْتُ أشْياءَ صالِحَةً لِلأكْلِ ، لَكِنَّني أحْتاجُ إلى مُساعَدَةٍ لإحْضارِها .»

سَألْتُهُ : « ماذا وَجَدْتَ ؟»

قالَ : « مَحاراً . إنَّها مُلْتَصِقَةٌ بِالصُّخورِ بِشِدَّة ، وَيُمكِنُ أنْ نَذْهَبَ لإحْضارِها عَقِبَ تَناوُلِ الطَّعامِ .»

عِنْدَئِذٍ قالَتْ زَوْجَتي : « لَقَدْ فَرَغْتُ مِنْ إعْدادِ الطَّعامِ ، وَلَكِنْ يَجِبُ الانْتِظارُ حَتّى يَعودَ فِرِتز .»

وَ ألْقَتْ نَظْرَةً عَلى وِعاءِ الطَّعامِ ، وَقالَتْ : « كَيْفَ سَنَتَناوَلُهُ؟ لَنْ نَسْتَطيعَ إخْراجَ الحَساءِ بِسِكّينٍ ! إنَّنا في حاجَةٍ إلى مَلاعِقَ ، وَلَيْسَ لَدَيْنا مِلْعَقَةٌ واحِدَةٌ .»

قُلْتُ : « إذا حَصَلْنا عَلى بَعْضِ ثِمارِ جَوْزِ الهِنْدِ ، أمْكَنَنا أنْ

نَشُقُّها نِصْفَيْنِ ، وَنَسْتَخْدِمَها كَمَلاعِقَ .»

قالَتْ زَوْجَتي : « يُمكِنُ أنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ ، إذا كانَتْ لَدَيْنا بَعْضُ ثِمارِ جَوْزِ الهِنْدِ . لَكِنْ لَيْسَ لَدَيْنا الآنَ ثَمَرَةٌ واحِدَةٌ مِنْها .»

قالَ إرْنسْت : « لَدَيْنا أصْدافٌ ، أوْ سَتَكونُ لَدَيْنا أصْدافٌ ، إذا أتَيْتُمْ وَساعَدْتُموني في إحْضارِها .»

وَذَهَبَ جاك مَعَ إرْنسْت لإحْضارِ المَحارِ .

وَسَرْعانَ ما عادَ فِرِتز ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلاماتُ القَلَقِ ، فَسَألْتُهُ: « أ لَمْ تَجِدْ شَيْئًا ؟»

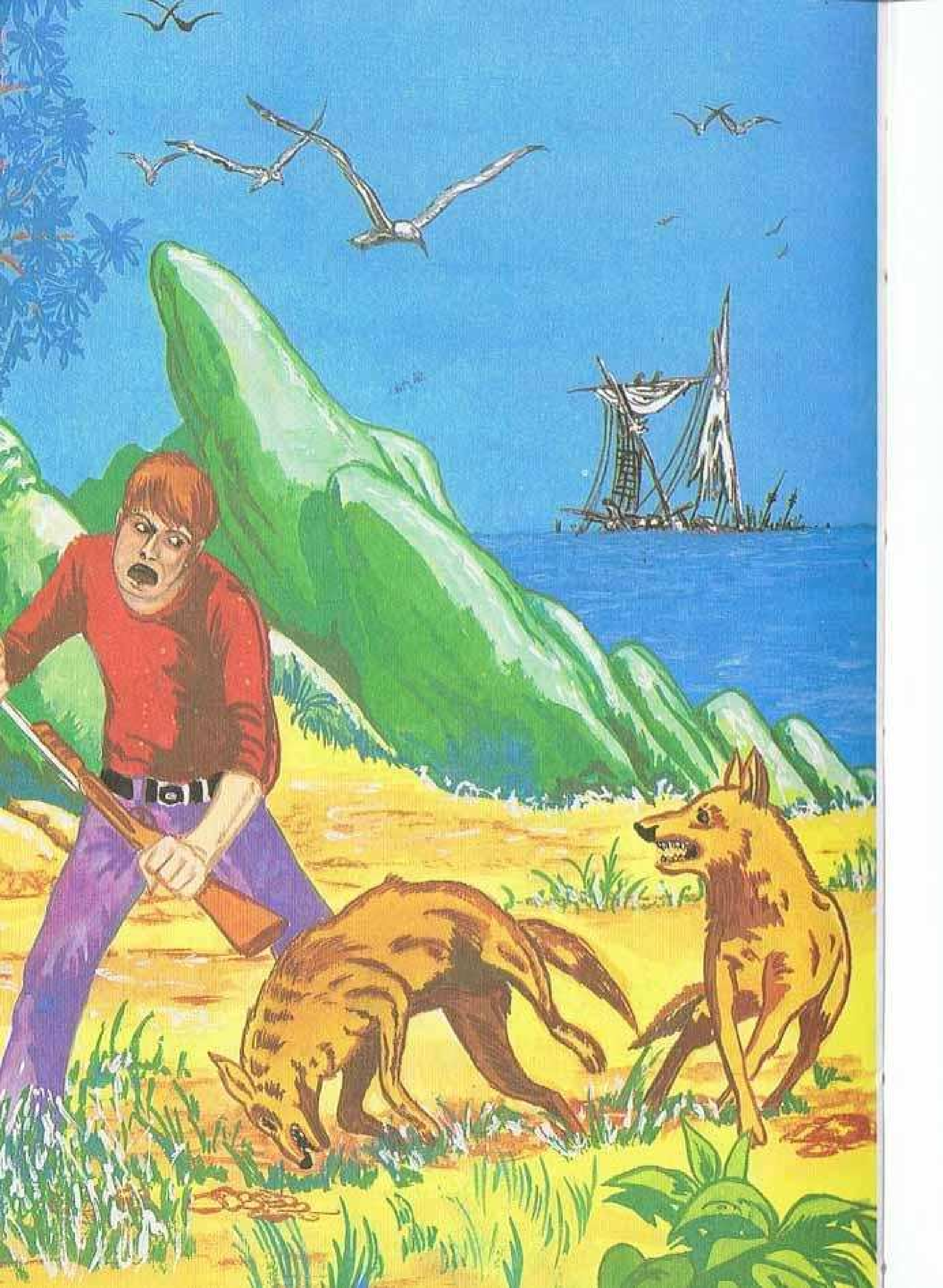
قالَ وَهُوَ يَتَظاهَرُ بِالأسَفِ : « نَعَمْ .»

وَ صاحَ فرانْسيس ، وَقَدْ أسْرَعَ يَقِفُ خَلْفَ فِرِتز : « بَلْ وَجَدَ . إنَّهُ يُخْفيهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ .» فَضَحِكَ فِرِتز ، وَأظْهَرَ لَنا ما أحْضَرَهُ .

سَألْناهُ : « ما هَذا ؟»

أجابَنا : « إنَّهُ يُشْبِهُ تَيْسَ الجَبَلِ شَبَهاً كَبيراً ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ. لَقَدْ رَأيْتُهُ يَتَحَرَّكُ بَيْنَ الحَشائِشِ وَ يَنْبِشُ الأرْضَ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْها طَعاماً، وَ كانَ يَقْعُدُ وَيَتَصَرَّفُ كَأنَّهُ يُنَظِّفُ وَجْهَهُ .»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، عادَ إرْنسْت يَتْبَعُهُ جاك ، وَقَدْ أحْضَرا مَعَهُما



بَعْضَ المحارِ . وَتناوَلَ جاك مَحارَةً ، وَحاوَلَ فَتْحَها ، وَلَمْ يُفْلِحْ ، فَقَال : « لا أَسْتَطِيعُ فَتْحَها . إنَّني لا أَقْدِرُ عَلى فَتْحِها .»

قُلْتُ : « ضَعِ المحارَةَ قُرْبَ النّارِ ، تَنْفَتِحْ بِغَيْرِ مَجْهودٍ مِنْكَ .»

وَجَلَسْنا نَأْكُلُ طَعامَنا ، وَبَدَأْنا بِالمحارِ حَتّى يُمْكِنَنا اسْتِخْدامُ الأَصْدافِ كَمَلاعِقَ نَتَناوَلُ بِها بَقِيَّةَ أَصْنافِ الطَّعامِ .

قالَتْ زَوْجَتي : « لَيْسَ لَدَيْنا أَطْباقٌ !»

قالَ إرْنِسْت ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْنا صَدَفَةً كَبيرَةً جِدًّا ، وَجَدَها عَلى الشّاطِئِ : « عِنْدي طَبَقٌ ، وَثَمَّةَ كَمِّيّاتٌ كَبيرَةٌ مِثْلُها في المكانِ الَّذي وَجَدْتُ بِهِ هَذِهِ .»

قُلْتُ لَهُ : « لِماذا إذًا لَمْ تُفَكِّرْ في الآخَرينَ ، فَتُحْضِرَ أَطْباقًا لَنا جَميعًا ؟ أَعْطِ هَذِهِ الصَّدَفَةَ لِلْكَلْبَيْنِ ، وَتَناوَلْ طَعامَكَ مِنَ الوِعاءِ مُباشَرَةً مِثْلَ الباقينَ .»

وَ الْتَهَمَ الكَلْبانِ طَعامَهُما بِسُرْعَةٍ ، لَكِنَّهُما لَمْ يَشْبَعا ، وَاقْتَرَبا مِنّا أَثْناءَ تَناوُلِنا الطَّعامَ ، وَعِنْدَما تَنَبَّهَ فِرِتْز إلَيْهِما ، غَضِبَ وَ ضَرَبَ الكَلْبَيْنِ بِمُؤَخِّرَةِ البُنْدُقِيَّةِ بِشِدَّةٍ ، حَتّى إنَّهُ كَسَرَ جُزْءًا مِنْها .

قُلْتُ لَهُ : « فِرِتْز ، إنَّكَ أَكْبَرُ إخْوَتِكَ ، وَبَقِيَّةُ الأَوْلادِ يُتابِعونَ

تَصَرُّفاتِكَ وَيُقَلِّدونَكَ . لَقَدْ شاهَدوكَ وَأَنْتَ تَغْضَبُ بِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَ تُؤْذي الحَيَواناتِ الَّتي لَمْ تَقْصِدِ ارْتِكابَ أيَّ خَطَأ .»

قالَ: « أنا آسِفٌ يا والِدي ! أَرْجو أنْ تُسامِحَني .»

وَ تَناوَلَ قِطْعَةَ خُبْزٍ في كُلِّ يَدٍ مِنْ يَدَيْهِ ، وَسَرْعانَ ما عادَ وَالكَلْبانِ يَتْبَعانِهِ .

كانَتِ الشَّمْسُ تَميلُ إلى الغُروبِ ، عِنْدَما انْتَهَيْنا مِنْ طَعامِنا . وَ فَتَحَتْ زَوْجَتي الكيسَ الَّذي أَحْضَرَتْهُ مَعَها مِنَ السَّفينَةِ ، وَمَلأَتْ قَبْضَتَيْها بِالقَمْحِ ، وَ أَلْقَتْ بِهِ إلى الدَّجاجِ ، فَطَلَبْتُ مِنْها أنْ تَتَوَقَّفَ عَنْ ذَلِكَ .

وَقُلْتُ : « كَمْ أنا سَعيدٌ ؛ لأنَّكِ أَحْضَرْتِ هَذا القَمْحَ . إنَّهُ تَصَرُّفٌ حَكيمٌ جِدًّا ، لَكِنْ يَجِبُ ألا نُطْعِمَهُ لِلدَّجاجِ ، وَعَلَيْنا أنْ نَسْتَخْدِمَهُ كَبُذورٍ ، وَأنْ نَزْرَعَهُ لِنَصْنَعَ مِنْهُ الخُبْزَ . أمَّا الدَّجاجُ ، فَيُمْكِنُهُ الاعْتِمادُ عَلى طَعامٍ آخَرَ .»

وَكانَتِ الدَّجاجاتُ قَدْ قَفَزَتْ فَوْقَ الخَيْمَةِ ، في حينَ انْطَلَقَ البَطُّ بَيْنَ الحَشائِشِ الطَّويلَةِ ، الَّتي تَنْمو عَلى حافَةِ الجَدْوَلِ. وَحَشَوْنا بَنادِقَنا وَأَعْدَدْناها لِلإِطْلاقِ ، وَ وَضَعْناها بِجِوارِنا ، ثُمَّ أَدَّيْنا الصَّلاةَ وَدَخَلْنا الخَيْمَةَ .

الفصل الثالث

العُثورُ عَلى أشْياءَ نافِعَةٍ

اِسْتَيْقَظْنا مُبَكِّرينَ جِدًّا ، فَقَدْ أيْقَظَنا البَطُّ وَالدَّجاجُ .

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ نَبْدَأَ البَحْثَ ؛ لِنَعْرِفَ ما إذا كانَ أحَدُ بَحّارَةِ السَّفينَةِ قَدْ وَصَلَ إلى البَرِّ .»

قالَتْ زَوْجَتي : « لا يَحْتاجُ الأمْرُ إلى ذَهابِنا جَميعًا . خُذْ مَعَكَ فِرِتْز ، وَسَأَنْتَظِرُ هُنا مَعَ الباقينَ .»

أجَبْتُها : « أوافِقُكِ ، وَسَنَصْطَحِبُ مَعَنا هَذا الكَلْبَ ‹‹ طِرْك ›› ، وَنَتْرُكُ الكَلْبَةَ ‹‹ فلورا ›› .»

وَأَعْطَتْ زَوْجَتي لِكُلٍّ واحِدٍ مِنّا كيسًا بِهِ طَعامٌ ، ثُمَّ بَدَأْنا رِحْلَتَنا ، فَانْطَلَقْنا عَلى طولِ شاطِئِ البَحْرِ ، نَبْحَثُ عَنْ آثارِ أَقْدامٍ فَوْقَ الرِّمالِ ، لَكِنَّنا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا .

وَكانَ فرِتز قَدْ أحْضَرَ مَعَهُ بُنْدُقِيَّةً أخرى بَعْدَ أنْ كَسَرَ بُنْدُقِيَّتَهُ .
قالَ : « هَلْ أُطْلِقُ طَلْقَةً مِنَ البُنْدُقِيَّةِ ؛ فَإذا كانَ ثَمَّ شَخْصٌ في مَكانٍ قَريبٍ فَإنَّهُ سَيَسْمَعُ الطَّلْقَةَ ، وَيأتي إلَيْنا ؟»

قُلْتُ : « لا ، قَدْ يَسْمَعُها آخَرونَ أيْضًا ، وَقَدْ يَكونُ هُناكَ سُكّانٌ مُتَوَحِّشونَ فَوْقَ الجَزيرَةِ ، وَمِنَ الخَطَرِ أنْ نُنَبِّهَهُمْ إلى وُجودِنا .»

وَابْتَعَدْنا عَنِ الشّاطِئِ ، وَبَعْدَ أنْ سِرْنا حَوالى ميلٍ وَصَلْنا إلى غابَةٍ صَغيرَةٍ . وَفي كُلِّ خُطْوَةٍ كُنّا نَرى نَوْعًا جَديدًا وَجَميلاً مِنَ النَّباتِ .

سَألَني فرِتْز : « ما هَذا النَّباتُ الغَريبُ ، الَّذي تَنْمو مِنْهُ تِلْكَ الأشْياءُ كَبيرَةُ الحَجْمِ ؟»

قُلْتُ : « إنَّها أشْياءُ مُفيدَةٌ جِدًّا ؛ فَهِيَ ثِمارُ القَرْعِ .»

وَأخَذْنا بَعْضَ تِلْكَ الثِّمارِ ، وَشَقَقْناها .

قُلْتُ : « وَالآنَ ، يَجِبُ أنْ نُزيلَ لُبَّها الطَّرِيَّ ، وَنَتْرُكَ القِشْرَةَ الخارِجِيَّةَ لِتَجِفَّ في الشَّمْسِ ، وَعِنْدَئِذٍ نَسْتَطيعُ أنْ نَصْنَعَ مِنْها مَلاعِقَ وَأطْباقًا وَأوْعِيَةً لِلطَّهْيِ ، فَهَذِهِ هِيَ الطَّريقَةُ الَّتي يَعْتَمِدُ عَلَيْها النّاسُ ، مِمَّنْ لا يَعْرِفونَ الحَديدَ أوْ غَيْرَهُ مِنَ المَعادِنِ ، في صُنْعِ

هَذِهِ الأشْياءِ . إنَّهُمْ يَصْنَعونَها مِنْ نَباتِ القَرْعِ .»

قالَ : « لَسْتُ أفْهَمُ كَيْفَ يُمْكِنُ صُنْعُ وِعاءٍ لِلطَّبْخِ مِنَ القَرْعِ ، الَّذي إذا وَضَعْتَهُ فَوْقَ النّارِ احْتَرَقَ .»

قُلْتُ : « لَكِنَّهُمْ لا يَضَعونَهُ فَوْقَ النّارِ . إنَّهُمْ يَمْلَئونَ نَباتَ القَرْعِ الجافَّ بِالماءِ ، ثُمَّ يَضَعونَ في الماءِ حَجَرًا ساخِنًا فَيَغْلي .»

وَشَقَقْنا بَعْضَ ثِمارِ القَرْعِ ، وَصَنَعْنا مِنْها مَلاعِقَ وَأطْباقًا ، وَتَرَكْناها في الشَّمْسِ لِتَجِفَّ ، ثُمَّ وَضَعْنا عَلاماتٍ تُساعِدُنا عَلى الاهْتِداءِ إلى المَكانِ ، حَتّى يُمْكِنَنا العَوْدَةُ فيما بَعْدُ و اسْتِرْدادُها .

وَ واصَلْنا السَّيْرَ ، حَتّى وَصَلْنا إلى قِطْعَةِ أرْضٍ تُغَطّيها أعْشابٌ طَويلَةٌ جِدًّا ، يَتَجاوَزُ ارْتِفاعُها رُءوسَنا .

قُلْتُ لِنَفْسي : « تُرى ، أيْنَ شاهَدْتُ مِثْلَ هَذا النَّباتِ مِنْ قَبْلُ ؟ هَلْ كانَ ذَلِكَ في صورَةٍ ؟»

وَ كانَ لا بُدَّ أنْ نَشُقَّ طَريقَنا وَسْطَ تِلْكَ الأعْشابِ ، فَأصْبَحَتْ يَدايَ لَزِجَتَيْنِ ، وَعِنْدَما لامَسَتْ يَدي فَمي ، تَذَكَّرْتُ !

قُلْتُ : « هَيّا ، يا فرِتْز ، اقْطَعْ واحِدًا مِنْ هَذا العُشْبِ ، وَبَعْدَ إزالَةِ قِشْرَتِهِ الخارِجِيَّةِ ، حاوِلْ أنْ تَمْتَصَّ عُصارَةَ اللُّبِّ الدّاخِلِيِّ

الطَّرِيِّ .»

وَعِنْدَما نَفَّذَ نَصيحَتي ، صاحَ : « إِنَّهُ حُلْوُ المَذاقِ ، كَأَنَّهُ سُكَّرٌ !»

قُلْتُ : « أَجَلْ ، هُوَ سُكَّرٌ ، وَهَذا هُوَ قَصَبُ السُّكَّرِ ، النَّباتُ الَّذي نَحْصُلُ مِنْهُ عَلى السُّكَّرِ . هَيَّا نَأْخُذْ بَعْضَهُ مَعَنا ؛ فَكَمْ سَتَكونُ سَعادَةُ بَقِيَّةِ أَفْرادِ الأُسْرَةِ وَدَهْشَتُهُمْ لِعُثورِنا عَلَيْهِ !»

وَ واصَلْنا السَّيْرَ ، فَوَجَدْنا أَمامَنا كَثيراً مِنْ أَشْجارِ جَوْزِ الهِنْدِ .

وَعِنْدَما تَقَدَّمْنا رَأَيْنا عَدَداً كَبيراً مِنَ القُرودِ عَلى الأَرْضِ قُرْبَ الأَشْجارِ ، وَقَدْ رَأَتْنا قَبْلَ أَنْ نَقْتَرِبَ مِنْها ، فَأَسْرَعَتْ تَتَسَلَّقُ الأَشْجارَ ، وَهِيَ تُطْلِقُ صَيْحاتِ الغَضَبِ .

وَرَفَعَ فِرِتْز بُنْدُقِيَّتَهُ ؛ فَصِحْتُ فيهِ : « تَوَقَّفْ ! لِماذا تُريدُ أَنْ تَقْتُلَ واحِداً مِنْ هَذِهِ القُرودِ ؟»

قالَ : « لأَنَّها تُصْدِرُ ضِدَّنا كُلَّ هَذِهِ الضَّجَّةِ القَبيحَةِ الغاضِبَةِ . إِنَّها مَخْلوقاتٌ لا نَفْعَ مِنْها !»

قُلْتُ : « بَلْ لَعَلَّها تَضْحَكُ ساخِرَةً مِنْكَ ! لِماذا يَنْتابُكَ كُلُّ هَذا الغَضَبِ ؟ إِنَّها عَلى حَقٍّ عِنْدَما تَضْحَكُ ساخِرَةً مِنْ صَبِيٍّ غاضِبٍ ، كَما أَنَّها لَيْسَتْ عَديمَةَ النَّفْعِ .»

قالَ فِرِتْز : « وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَفيدَ مِنْ قِرْدٍ ؟»

عِنْدَئِذٍ جَمَعْتُ بَعْضَ الأَحْجارِ ، وَقَذَفْتُ بِها القُرود ، فَقَذَفَتْني بِثِمارِ جَوْزِ الهِنْدِ ! فَقُلْتُ ، وَأَنا أَلْتَقِطُ بَعْضَ ثِمارِ الجَوْزِ لأَحْمِلَها مَعي عِنْدَ العَوْدَةِ إِلى الأُسْرَةِ : « ها أَنْتَ ذا تَرى أَنَّ قِرْداً غاضِباً يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ نافِعاً جِدّاً !»

وَأَثْناءَ اقْتِرابِنا مِنْ عَدَدٍ آخَرَ مِنْ أَشْجارِ جَوْزِ الهِنْدِ ، كانَ الكَلْبُ طِرْك قَدْ سَبَقَنا ، وَسَمِعْنا صَيْحاتِ أَلَمٍ وَغَضَبٍ صادِرَةً عَنِ القُرودِ الَّتي كانَتْ فَوْقَ الأَشْجارِ . وَبَيْنَما نَحْنُ في طَريقِنا وَجَدْنا طِرْك قَدْ أَمْسَكَ بِأَحَدِ القُرودِ ، وَجَرى فِرِتْز لِيُنْقِذَهُ ، لَكِنَّهُ وَصَلَ مُتَأَخِّراً ؛ فَقَدْ ماتَ القِرْدُ . كانَتْ أُنْثى ، وَكانَ صَغيرُها الرَّضيعُ مُتَوارِياً بَيْنَ الحَشائِشِ يَصْرُخُ مِنَ الفَزَعِ . وَ ما إِنْ شاهَدَ فِرِتْز ، حَتَّى قَفَزَ عَلى ظَهْرِهِ وَتَشَبَّثَ بِشَعْرِ رَأْسِهِ .

صاحَ فِرِتْز : « أَبْعِدْهُ عَنّي ! أَبْعِدْهُ عَنّي .» وَ أَزَحْتُ القِرْدَ بِرِفْقٍ عَنْ ظَهْرِ فِرِتْز ، وَاحْتَضَنْتُهُ بَيْنَ ذِراعَيَّ كَأَنَّهُ طِفْلٌ ، وَعُدْنا .

وَرَأَتْنا زَوْجَتي وَ الأَوْلادُ الثَّلاثَةُ وَنَحْنُ نَتَقَدَّمُ ناحِيَتَهُمْ ، فَأَسْرَعوا يَجْرونَ لِمُلاقاتِنا . وَكَمْ كانَتْ سَعادَتُهُمْ بِرُؤْيَةِ القِرْدِ الصَّغيرِ !

سَأَلوا : « ما هَذِهِ العِصِيُّ الَّتي مَعَكُمْ ؟»

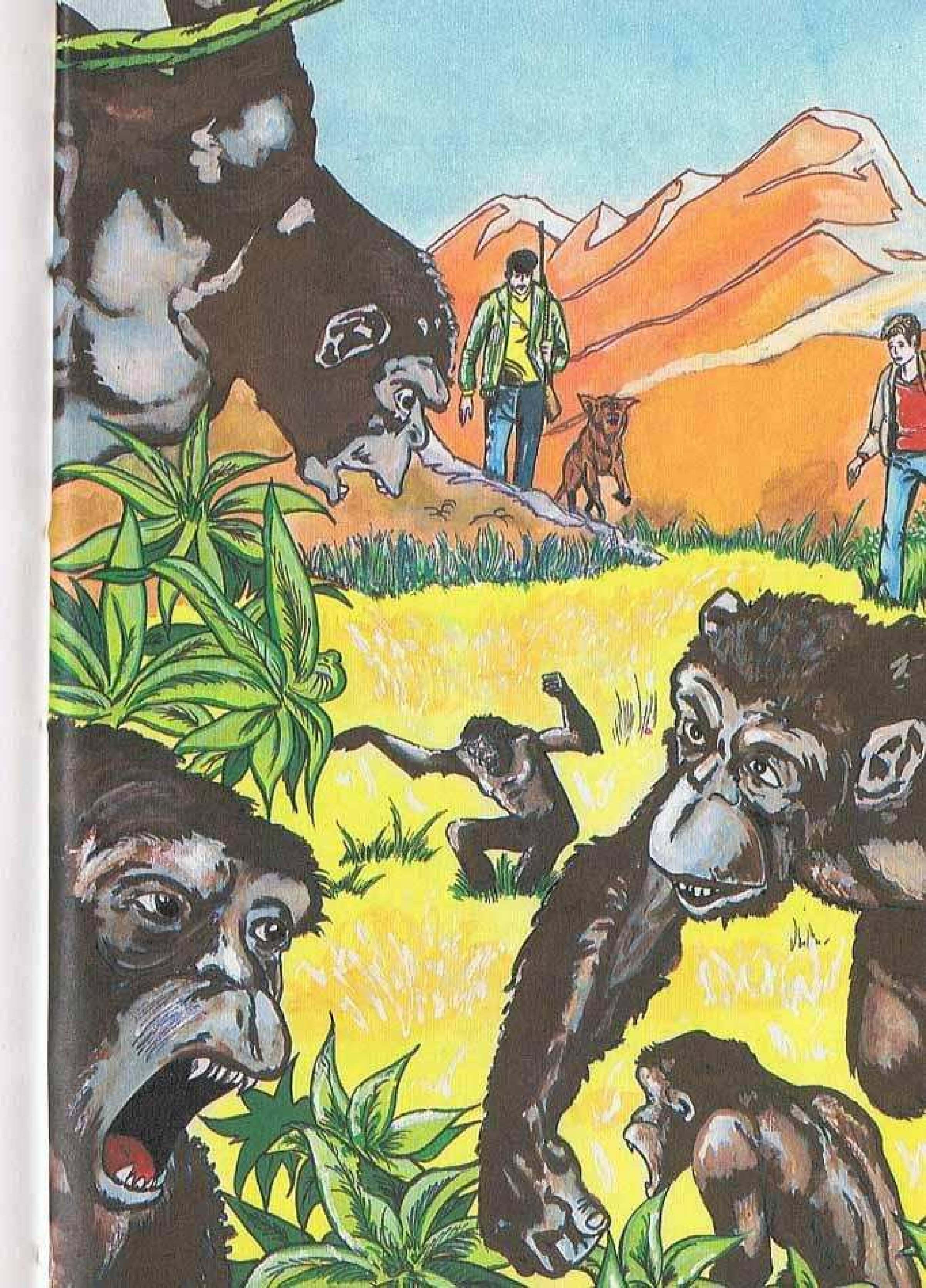
قالَ فِرِتْز : « إنَّها طَعامٌ لَكُمْ ! »

وَعِنْدَما وَصَلْنا الخَيْمَةَ ، وَجَدْنا طَعامًا جِدَّ شَهِيٍّ في انْتِظارِنا . كانَتْ ثَمَّةَ أنْواعٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ السَّمَكِ تُشْوى عَلى جانِبٍ مِنَ النّارِ ، في حينِ يُشْوى طائِرٌ عَلى الجانِبِ الآخَرِ . كانَ فرانْسيس هُوَ الَّذي اصْطادَ السَّمَكَ ، وَأمْسَكَ إرْنِسْتْ بِالطّائِرِ .

قالَ إرْنِسْت : « لَسْتُ أعْرِفُ ما هُوَ هَذا الطّائِرُ ، وَلَكِنْ يَبْدو أنَّهُ شَديدُ الغَباءِ ؛ فَقَدْ تَرَكَني أقْتَرِبُ مِنْهُ كَثيرًا ، حَتّى ضَرَبْتُهُ بِعَصايَ . »

وَكانَ السَّمَكُ شَهِيَّ المَذاقِ ، لَكِنَّنا لَمْ نَتَقَبَّلْ مَذاقَ طائِرِ إرْنِسْت ؛ فَقَدْ وَجَدْناهُ يُشْبِهُ مَذاقَ السَّمَكِ .

وَانْتَهَيْنا مِنْ طَعامِنا مَعَ غُروبِ الشَّمْسِ ، وَقَفَزَتِ الدَّجاجاتُ فَوْقَ الخَيْمَةِ ، عَلى حينَ ذَهَبَ البَطُّ إلى الحَشائِشِ قُرْبَ مَجْرى الجَدْوَلِ ، وَأخَذَ فِرِتْز القِرْدَ لِيَنامَ بِالقُرْبِ مِنْهُ .



الفصل الرابع

العَوْدَةُ إلى السَّفينَةِ

اسْتَيْقَظْتُ وَ اسْتَدْعَيْتُ زَوْجَتي ، وَقُلْتُ لَها : « أمامَنا أشْياءُ كَثيرَةٌ لا بُدَّ مِنْ إنْجازِها ، وَمِنَ الصَّعْبِ أنْ نُحَدِّدَ ما الَّذي نَبْدَأُ بِهِ .»

قالَتْ : « أوَّلُ ما يَجِبُ القِيامُ بِهِ أنْ نَذْهَبَ إلى السَّفينَةِ ؛ لإحْضارِ الحَيَواناتِ الَّتي بِها . اِذْهَبْ أنْتَ وَفِرِتْز ، أمّا أنا وَالباقونَ ، فَسَنَبْحَثُ عَنْ مَكانٍ نُقيمُ فيهِ بَيْتًا .»

قالَ فِرِتْز : « كَيْفَ يُمْكِنُنا الوُصولُ إلى السَّفينَةِ ؟ عِنْدَما جِئْنا إلى البَرِّ ، ساعَدَتْنا الرّيحُ عَلى ذَلِكَ ، لَكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ الإبْحارَ بِالقارِبِ ضِدَّ اتِّجاهِ الرّيحِ .»

قُلْتُ : « لَكِنَّ اتِّجاهَ الرّيحِ يَتَغَيَّرُ ، يا فِرِتْز .»

قالَ : « هَذا صَحيحٌ ، يا والِدي ، لَكِنْ كَيْفَ تَعْرِفُ الوَقْتَ الَّذي

سَيَتَغَيَّرُ فيهِ اتِّجاهُ الرّيحِ ؟ هَلْ يَجِبُ أنْ نَنْتَظِرَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ حَتّى يَتَغَيَّرَ ؟»

قُلْتُ : « لا ، سَنَنْتَظِرُ فَقَطْ حَتّى حُلولِ المَساءِ . فَعِنْدَما جِئْنا إلى البَرِّ ، كانَ ذَلِكَ في فَتْرَةِ ما بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَالأرْضُ ساخِنَةٌ ، فَكانَ الهَواءُ يَرْتَفِعُ صاعِدًا مِنَ اليابِسِ ، في حينِ كانَ الهَواءُ البارِدُ يَهُبُّ مِنَ البَحْرِ إلى اليابِسِ لِيَحُلَّ مَحَلَّ الهَواءِ السّاخِنِ . لَكِنَّ البَحْرَ يَحْتَفِظُ بِحَرارَتِهِ وَقْتًا أطْوَلَ مِنَ اليابِسِ ، فَاليابِسُ يَكْتَسِبُ الحَرارَةَ وَيَفْقِدُها أسْرَعَ مِمّا يَحْدُثُ مَعَ ماءِ البَحْرِ ؛ لِهَذا فَإنَّهُ ، أثْناءَ اللَّيْلِ ، يَكونُ البَحْرُ أكْثَرَ دِفْئًا مِنَ البَرِّ ، فَيَهُبُّ الهَواءُ مِنَ اليابِسِ إلى البَحْرِ .»

اِلْتَفَتُّ إلى زَوْجَتي قائِلاً : « يَجِبُ أنْ نَبْدَأَ إبْحارَنا في نِهايَةِ النَّهارِ ، ثُمَّ نَبْقى عَلى السَّفينَةِ خِلالَ اللَّيْلِ . اُطْلُبي مِنْ إرْنِسْت أنْ يَتَسَلَّقَ تِلْكَ الشَّجَرَةَ العالِيَةَ ، وَأنْ يَرْبِطَ فيها قِطْعَةَ قُماشٍ كَأنَّها رايَةٌ . وَإذا تَعَرَّضْتُمْ هُنا لأيَّةِ أخْطارٍ ؛ أنْزِلوا الرّايَةَ .»

قالَتْ زَوْجَتي : « وَعَلَيْكُمْ أنْ تُضيئوا نورًا في السَّفينَةِ ؛ حَتّى أعْرِفَ أنَّكُمْ وَصَلْتُمْ بِسَلامٍ .»

أجَبْتُ : « سَنَفْعَلُ ذلِكَ .»

وانْتَظَرْنا حُلولَ المَساءِ ، و وَصَلْنا السَّفينَةَ بِسُهولَةٍ بالِغَةٍ ، فَوَجَدْنا الحَيَواناتِ في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ ، وأمامَها طَعامٌ كافٍ . وأضاءَتْ نوراً كَما وَعَدَتْ زَوْجَتي ، ثُمَّ تَناوَلْنا بَعْضَ الطَّعامِ ، وذَهَبْنا لِنَنامَ .

وفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، اسْتَيْقَظْنا مُبَكِّرينَ ، و جَمَعْنا الأشْياءَ الَّتي يُمْكِنُ أنْ تَكونَ ذاتَ فائِدَةٍ لَنا عَلى البَرِّ .

قالَ فِرِتْز : « يَجِبُ أنْ تَتَوافَرَ لَدَيْنا كَمِّيّاتٌ كَبيرَةٌ مِنَ البارودِ والطَّلَقاتِ ؛ حَتّى نَكونَ في أمانٍ مِنَ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ ، أوْ أيِّ عَدُوٍّ آخَرَ . وفيما بَعْدُ سَنَحْتاجُ إلَيْها .»

قُلْتُ : « عَلَيْنا أنْ نُفَكِّرَ في الحاضِرِ ، وفيما نَحْتاجُ إلَيْهِ الآنَ ؛ لِنَسْتَخْدِمَهُ في الأيّامِ أوِ الأسابيعِ القَليلَةِ القادِمَةِ . يَجِبُ أنْ نَأخُذَ مَزيداً مِنْ قُماشِ الأشْرِعَةِ .»

قالَ فِرِتْز : « لَقَدْ رَأيْتُ بِرْميلاً مِنَ الزُّبْدِ . وهُناكَ أيْضاً مَخْزونُ السَّفينَةِ مِنَ الخُبْزِ والمِلْحِ واللَّحْمِ ، إذا لَمْ يَكُنِ الماءُ قَدْ أفْسَدَها . لكِنْ ماذا سَنَصْنَعُ عِنْدَما نَسْتَهْلِكُ الخُبْزَ ، أوْ يَفْسُدُ الزُّبْدُ ؟»

قُلْتُ : « دَعْنا نُفَكِّرْ فيما نَحْتاجُ إلَيْهِ الآنَ . إنَّ لَدَيْنا ما يَكْفي

مِنَ المَشاكِلِ لِنُفَكِّرَ في حَلِّها ، مِنْ دونِ التَّفْكيرِ في مَشاكِلَ قَدْ تَنْشَأُ فيما بَعْدُ ؛ فَقَدْ تَأْتي سَفينَةٌ وتُنْقِذُنا .»

لكِنَّني كُنْتُ مُخْطِئاً ؛ فَلا بُدَّ أنْ نَكونَ عَلى اسْتِعْدادٍ دائِمٍ لِمُواجَهَةِ احْتِمالاتِ المُسْتَقْبَلِ كافَّةً .

وقَدِ اسْتَغْرَقَ جَمْعُ الأشْياءِ يَوْماً كامِلاً ، وكانَ عَلَيْنا أنْ نَقْضِيَ لَيْلَةً أخْرى فَوْقَ السَّفينَةِ .

اسْتَيْقَظْنا في صَباحِ اليَوْمِ التّالي مُتَأخِّرينَ ، وأعَدَّ لَنا فِرِتْز شَيْئاً أكَلْناهُ في الإفْطارِ . وكُنْتُ قَدْ عَثَرْتُ عَلى المِنْظارِ المُقَرِّبِ (التِّلِسْكوب) الخاصِّ بِالرُّبّانِ ، واسْتَطَعْتُ رُؤْيَةَ زَوْجَتي وهِيَ تَخْرُجُ مِنَ الخَيْمَةِ ، وتَنْظُرُ في اتِّجاهِ السَّفينَةِ ، فأنْزَلْتُ المِصْباحَ ، ورَفَعْتُ عَلَماً أبْيَضَ ؛ لِتَعْرِفَ أنَّنا في أمانٍ .

قُلْتُ ، وقَدْ جَلَسْنا لِتَناوُلِ الإفْطارِ : « والآنَ ، يا فِرِتْز ، كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ نَنْقُلَ هذِهِ الحَيَواناتِ إلى البَرِّ ؟»

قالَ : « لا يُمْكِنُ أنْ نَضَعَها في القارِبِ ؛ فَهِيَ ثَقيلَةُ الوَزْنِ جِدّاً ؛ فَهَلْ يُمْكِنُ أنْ نَصْنَعَ قارِباً آخَرَ ؟ أعْتَقِدُ أنَّ هذا لَيْسَ سَهْلاً ؛ لأنَّهُ لا بُدَّ أنْ يَكونَ جِدَّ مُتَّسِعٍ ؛ فَماذا نَفْعَلُ ؟ إنَّ البَقَراتِ

والمَعْزَ وَ الخَروفَيْنِ وَالحِمارَ لا يُمْكِنُها السِّباحَةُ مَسافَةً طَويلَةً .»

قُلْتُ : « إنَّ السَّفينَةَ عَلَيْها عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ البَراميلِ ، وَهُوَ عَدَدٌ يَكْفي لِصُنْعِ قارِبٍ كَبيرٍ ، وَلكِنَّ الأمْرَ يَسْتَغْرِقُ وَقْتاً طَويلاً .»

صاحَ فِرِتْز : « البَراميلُ ! لِماذا لا نَصْنَعُ لِكُلِّ حَيَوانٍ طَوْقَهُ ؟ يُمْكِنُنا رَبْطُ عَدَدٍ مِنَ البَراميلِ إلى كُلِّ حَيَوانٍ ، فَيُساعِدُهُ عَلى البَقاءِ طافِياً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، ثُمَّ نَجُرُّ الحَيَواناتِ خَلْفَ القارِبِ .»

قُلْتُ : « اقْتِراحٌ وَجيهٌ ، وَقَدْ يَنْجَحُ . هَيّا نَبْدَأ بِتَجْرِبَتِهِ ، فَنُنَفِّذَهُ مَعَ حَيَوانٍ واحِدٍ ، وَنَرى النَّتيجَةَ .»

وَقُمْنا بِتَثْبيتِ بِرْميلَيْنِ إلى جانِبَيْ خَروفٍ ، ثُمَّ وَضَعْناهُ في الماءِ ، وَسَرْعانَ ما غاصَ ، وَظَنَنْتُ أنَّهُ لَنْ يَطْفُوَ ثانِيَةً أبَداً ، لكِنَّني رَأيْتُ رَأسَهُ يَظْهَرُ أخيراً فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، وَبَدَأ يَسْبَحُ . وَعِنْدَما أصابَهُ التَّعَبُ تَوَقَّفَ عَنِ السِّباحَةِ ، وَظَلَّ في مَكانِهِ طافِياً بِمُساعَدَةِ البِرْميلَيْنِ . وَقَفَزَ فِرِتْز إلى الماءِ ، وَرَبَطَ حَبْلاً حَوْلَ الخَروفِ ، فاسْتَطَعْنا اسْتِعادَتَهُ إلى ظَهْرِ السَّفينَةِ . وَقَرَّرْنا تَثْبيتَ البَراميلِ إلى ظُهورِ كُلِّ الحَيَواناتِ ، فَظَلِلْنا نَعْمَلُ عَمَلاً مُتَواصِلاً . وَقَدْ ظَنَنّا في البِدايَةِ تَعَذُّرَ التَّنْفيذِ ، وَلَمْ تُواجِهْنا المَتاعِبُ إلا مَعَ الحِمارِ .

قالَ فِرِتْز : « قَدْ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا تَرْكُهُ ؛ إنَّ البَقَرَةَ والمَعْزَ هِيَ ما نَحْتاجُ إلَيْهِ بِشِدَّةٍ .» وَكُنّا قَدِ انْتَهَيْنا مِنْ أمْرِ البَقَرَةِ وَ المَعْزِ ، فَبَدَأنا نُحاوِلُ مِنْ جَديدٍ مَعَ الحِمارِ ، وَاسْتَجابَ لَنا أخيراً .

وَهكَذا اسْتَطَعْنا في النِّهايَةِ أنْ نَضَعَ الحَيَواناتِ كُلَّها في الماءِ ، ثُمَّ جَمَعْنا أطْرافَ الحِبالِ الَّتي رَبَطْناها بِها ، لِنَجْذِبَها مِنْها إذا احْتاجَتْ إلى مُساعَدَةٍ ، ثُمَّ نَزَلْنا إلى القارِبِ ، وَرَفَعْنا الشِّراعَ .

وَكانَتِ الرّيحُ تَهُبُّ بِشِدَّةٍ ، وَ سَرْعانَ ما اسْتَطَعْنا رُؤْيَةَ الخَليجِ الصَّغيرِ . وَقَطَعْتُ الحِبالَ الَّتي تَرْبُطُ الحَيَواناتِ ، فَاسْتَطاعَتْ أنْ تَصِلَ إلى الشّاطِئِ ، وَشَعَرَتْ بِالسَّعادَةِ ؛ لِتَخَلُّصِها مِنْ تِلْكَ البَراميلِ الَّتي كانَتْ تَحْمِلُها فَوْقَ ظُهورِها .

وَلَمْ يَأتِ أحَدٌ مِنْ أفْرادِ العائِلَةِ لاسْتِقْبالِنا ، وَانْتابَتْني الحَيْرَةُ ، فَلَمْ أكُنْ أعْرِفُ أيْنَ ذَهَبوا . ثُمَّ شاهَدْناهُمْ يَجْرونَ نَحْوَنا ، وَ فَرِحَتْ زَوْجَتي عِنْدَما شاهَدَتْ كُلَّ الحَيَواناتِ قَدْ وَصَلَتْ سالِمَةً إلى البَرِّ .

سَألَتْ : « ما الَّذي أوْحى إلَيْكُمْ بِهذِهِ الفِكْرَةِ السَّديدَةِ ؟»

أجَبْتُ : « لَمْ تَكُنْ فِكْرَتي ، بَلْ لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أصِلَ إلى أيَّةِ طَريقَةٍ لِنَقْلِها . إنَّها فِكْرَةُ فِرِتْز .»

الفصل الخامس

العُثورُ على مكانٍ لإقامةِ منزلٍ

سَألْتُ : « ما الَّذي كُنْتِ تَقومين بِهِ ، يا عَزيزَتي ، عِنْدَما كُنْتُ أنا وَفرِتز فَوْقَ السَّفينَةِ ؟»

قالَتْ زَوْجَتي : « عَثَرْتُ عَلى مَكانٍ لِبَيْتِنا الجَديدِ . إنَّ الحَرَّ داخِلَ الخَيْمَةِ أشَدُّ مِمّا نَسْتَطيعُ احْتِمالَهُ ، وَلَيْسَ ثَمَّةَ أشْجارٌ حَوْلَنا نَسْتَطيعُ أنْ نَجْلِسَ في ظِلِّها ؛ لِذَلِكَ حَمَلَ إرْنسْت وَجاك بُنْدُقِيَّتَيْهِما ، وَأخَذْنا مَعَنا طَعامًا يَكْفينا طَوالَ اليَوْمِ ، وَجاءَ الكَلْبانِ مَعَنا أيْضًا . وَقَدِ اعْتَرَضَنا مَجْرًى صَغيرٌ ، فَعَبَرْناهُ فَوْقَ الحِجارَةِ ، ثُمَّ واصَلْنا السَّيْرَ ، حَتّى وَصَلْنا إلى أرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ . وَكَمْ أدْهَشَنا جَمالُ الطَّبيعَةِ مِنْ حَوْلِنا ! وَقَدِ اسْتَطَعْتُ أنْ أرى مَجْموعَةً صَغيرَةً مِنَ الأشْجارِ تَنْمو عَلى مَسافَةٍ مِنّا ، فَواصَلْنا السَّيْرَ ، حَتّى وَصَلْنا إلَيْها في النِّهايَةِ . لَمْ تَكُنْ هُناكَ إلا عَشْرُ أوِ اثْنَتا عَشْرَةَ شَجَرَةً ، لكِنَّها كانَتْ

أضْخَمَ أشْجارٍ شاهَدْتُها في حَياتي .»

وَ واصَلَتْ زَوْجَتي قِصَّتَها :

« تَوَقَّفْنا هُناكَ ، وَتَناوَلْنا طَعامَنا . لَقَدْ تَبَيَّنّا أنَّنا وَصَلْنا إلى أفْضَلِ مَكانٍ يُمْكِنُ أنْ نُقيمَ فيهِ . ها أنْتَ ذا قَدْ عَرَفْتَ الآنَ قِصَّتي ؛ لَقَدْ ذَهَبْتُ لأبْحَثَ عَنْ مَكانٍ جَديدٍ نَعيشُ فيهِ ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ . فَإذا أرَدْتَ أنْ تُشْعِرَني حَقًا بِالسَّعادَةِ ؛ فَعَلَيْكَ أنْ تَعِدَني بِأنْ نَذْهَبَ إلى هُناكَ ، وَنُقيمَ لَنا مَنْزِلاً فَوْقَ واحِدَةٍ مِنْ تِلْكَ الأشْجارِ العِمْلاقَةِ !»

قُلْتُ ضاحِكًا : « ماذا ؟ فَوْقَ شَجَرَةٍ ؟ مَنْزِلٌ فَوْقَ شَجَرَةٍ ؟ أفْهَمُ أنْ نَعيشَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، لكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ نَصْعَدَ فَوْقَ شَجَرَةٍ ؟ هَلْ سَنَطيرُ ؟»

قالَتْ : « تَسْتَطيعُ أنْ تَضْحَكَ كَما تَشاءُ ، لكِنَّني موقِنَةٌ بِأنَّهُ في اسْتِطاعَتِنا بِناءُ كوخٍ صَغيرٍ بَيْنَ الأغْصانِ ، وَسَنَتَوَصَّلُ إلى طَريقَةٍ لِلْوُصولِ إلى ذَلِكَ .»

قُلْتُ : « سَنَذْهَبُ جَميعًا في الغَدِ وَنَرى المَكانَ ، ثُمَّ نُفَكِّرُ فيما يُمْكِنُ عَمَلُهُ .»

الفصل السادس

الانْتِقالُ إلى بَيْتِنا الجديدِ

أخَذْتُ أفكِّرُ ، طَوالَ اللَّيْلِ فيما قالَتْهُ زَوْجَتي . وَعِنْدَما جَلَسْنا نَتَناوَلُ إفْطارَنا صَباحَ اليَوْمِ التّالي ، قُلْتُ : « سَنَذْهَبُ وَنَعيشُ في ذَلِكَ المَكانِ الَّذي شاهَدْتُه على الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهرِ . والآنَ ، ما الَّذي يَجِبُ أنْ نَبْدَأَ بِهِ ؟ »

قالَ جاك : « أنا أعْرِفُ بِماذا نَبْدَأ ، يَجِبُ أنْ نَنْقُلَ الخَيْمَةَ ، وَنَأْخُذَ كُلَّ أشْيائِنا الأخْرى ، ثُمَّ نَصْطَحِبَ الحَيَواناتِ . »

سَأَلْتُ : « وَما رَأْيُكَ ، يا فرِتْز ؟ »

أجابَ فرِتْز : « ذَلِكَ المَكانُ يَقَعُ عَلى النّاحِيَةِ الأخْرى مِنَ النَّهْرِ . لَقَدْ عَبَرَتْهُ والِدَتي مَعَ إرْنِسْت وَجاك ، فَوْقَ حِجارَةٍ وَضَعوها وَسَطَ المَجْرى ، لَكِنَّ البَقَرَةَ وَالحِمارَ يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِما أنْ يَعْبُراهُ فَوْقَ تِلْكَ

الأحْجارِ ، كَما يَتَعَذَّرُ عَلَيْنا أنْ نَحْمِلَ مَتاعَنا وَنَغوصَ بِهِ في الماءِ ؛ لِذا عَلَيْنا أنْ نُقيمَ جِسْرًا . »

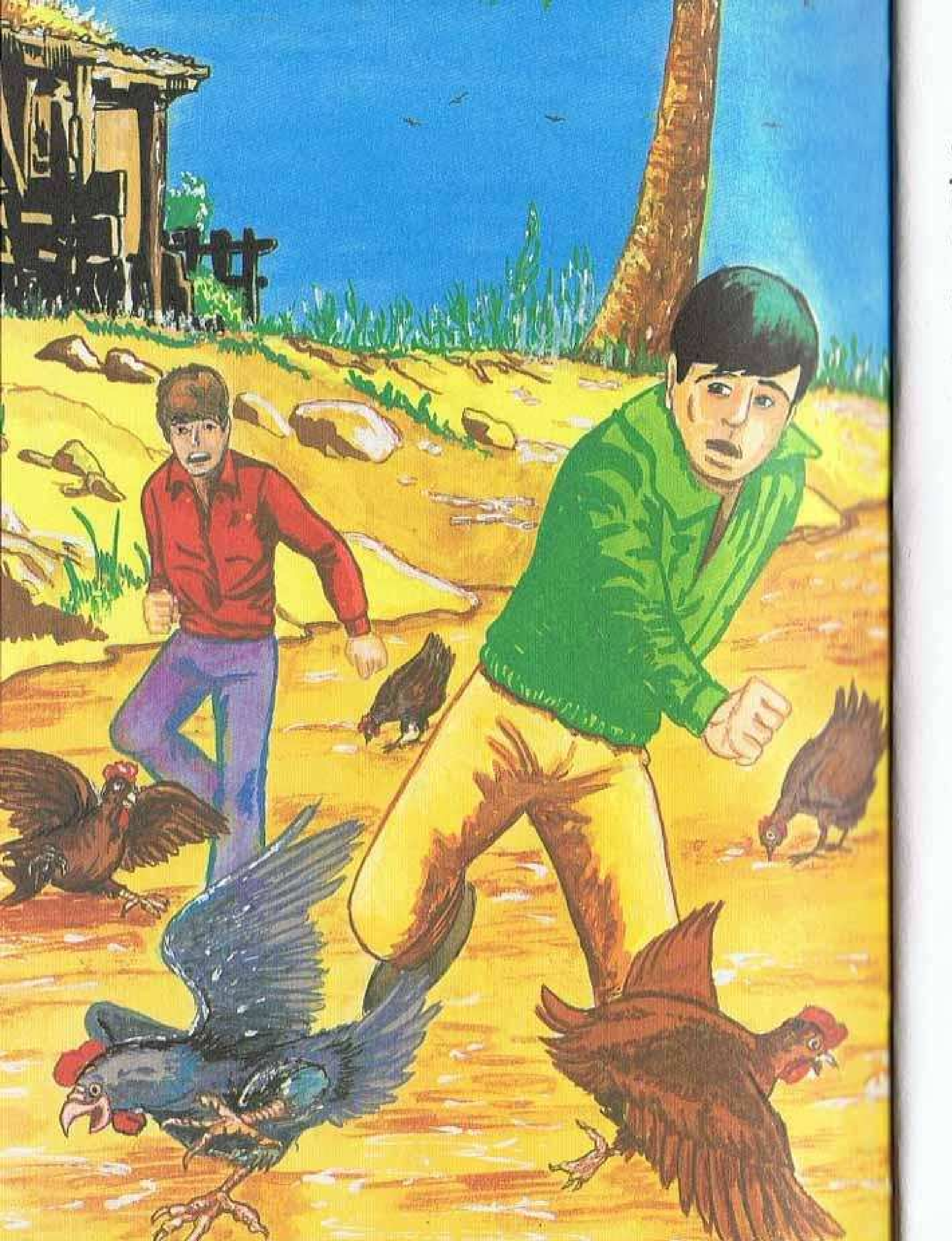
قالَ إرْنِسْت : « إذَنْ عَلَيْنا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أنْ نَعودَ إلى السَّفينَةِ ؛ لإحْضارِ أخْشابٍ لاسْتِخْدامِها في إقامَةِ الجِسْرِ . »

قالَ جاك : « لا ، لا حاجَةَ بِنا لِلعَوْدَةِ إلى السَّفينَةِ ؛ لأنَّني شاهَدْتُ كَمِّيّاتٍ ضَخْمَةً مِنَ الأخْشابِ ، فَوْقَ الشّاطِئِ الَّذي أمْسَكَني عِنْدَهُ ذَلِكَ الشَّيْءُ . لَقَدْ حَمَلَها البَحْرُ مَعَهُ مِنَ السَّفينَةِ . »

قُلْتُ : « أنْتَ وَلَدٌ مُمْتازٌ ! هَيّا نَذْهَبْ وَنَرَ ما الَّذي يُمْكِنُ أنْ نَعْثُرَ عَلَيْهِ هُناكَ . »

كانَ جاك مُصيبًا ؛ فَقَدْ وَجَدْنا كَثيرًا مِنَ الخَشَبِ ، فَرَبَطْنا مَعًا القِطَعَ الكَبيرَةَ الَّتي يُمْكِنُ أنْ تَنْفَعَنا ، ثُمَّ سَحَبْناها إلى مَصَبِّ النَّهرِ . وَ جَرَّها الحِمارُ حَتّى المَكانِ الَّذي اعْتَزَمْنا أنْ نُقيمَ الجِسْرَ عَلَيْهِ .

وَاسْتَطَعْنا بِصُعوبَةٍ أنْ نَمُدَّ ثَلاثَ قِطَعٍ طَويلَةٍ مِنَ الخَشَبِ بِعَرْضِ المَجْرى ، مِنْ شاطِئٍ إلى الشّاطِئِ الآخَرِ ، ثُمَّ ثَبَّتْنا بِالمَسامِيرِ قِطَعًا أصْغَرَ مِنَ الخَشَبِ ، تَصِلُ كُلٌّ مِنْها بَيْنَ تِلْكَ القِطَعِ الثَّلاثِ. وَكانَ العَمَلُ شاقًا جِدًّا ، حَتّى إنَّنا نِمْنا نَوْمًا عَميقًا تِلْكَ اللَّيْلَةَ . وَفي



صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، استَيْقَظْنا مُبكِّرينَ ، وَبَدَأْنا الإعْدادَ لِرِحْلَتِنا .

لَقَدْ وَضَعْنا الأوانِيَ وَالطَّعامَ وَكُلَّ الأشْياءِ الصَّغيرَةِ في أكْياسٍ ، عَلَّقْناها عَلى جانِبَيِ البَقَرَةِ وَالحِمارِ . كَما وَضَعْنا أكْياساً صَغيرَةً عَلى ظُهورِ المَعْزِ . وَرَكِبَ فرانْسيس فَوْقَ ظَهْرِ الحِمارِ ؛ لِكَيْ لا يُحاوِلَ الحَيَوانُ الهَرَبَ ، وَحَمَلْتُ أنا وَالأوْلادُ أغْطِيَةَ فِراشِنا ، وَكُلَّ ما نَحْتاجُ إلَيْهِ خِلالَ أيّامِنا الأولى في مَحَلِّ إقامَتِنا الجَديدِ . وَ عِنْدَما أصْبَحْنا جَميعًا عَلى أهْبَةِ الاسْتِعْدادِ ، جاءَتْ زَوْجَتي وَقالَتْ : « لا نَسْتَطيعُ تَرْكَ الدَّجاجاتِ هُنا ، وَإلا فَقَدْناها كُلَّها .»

عِنْدَئِذٍ بَدَأ فرِتْز وَإرْنسْت في الجَرْيِ هُنا وَهُناكَ ، وَهُما يُحاوِلانِ الإمْساكَ بِها ، لكِنَّهُما لَمْ يَسْتَطيعا الإمْساكَ حَتّى بِواحِدَةٍ مِنْها .

قالَتْ زَوْجَتي : « سَأُريكُما كَيْفَ تَفْعَلانِ هَذا .» وَألْقَتْ بَعْضَ الطَّعامِ عَلى الأرْضِ ، فَأسْرَعَتْ كُلُّ الدَّجاجاتِ إلَيْهِ ، ثُمَّ ألْقَتْ مَزيداً مِنَ الطَّعامِ داخِلَ الخَيْمَةِ ، فَدَخَلَتِ الدَّجاجاتُ كُلُّها إلى الخَيْمَةِ . وَأثْناءَ انْشِغالِها بِالْتِقاطِ الطَّعامِ ، أغْلَقَتْ زَوْجَتي مَدْخَلَ الخَيْمَةِ ، ثُمَّ دَخَلَ جاك و أمْسَكَها . وَأخيراً أكْمَلْنا اسْتِعْدادَنا لِلتَّحَرُّكِ ، بَعْدَ أنْ وَضَعْنا كُلَّ الأشْياءِ الباقِيَةِ داخِلَ الخَيْمَةِ ، وَأغْلَقْناها بِإحْكامٍ .

وَسارَ فرِتْز مَعَ والِدَتِهِ في المُقَدِّمَةِ ، وَبَعْدَهُما البَقَرَةُ مَعَ الحِمارِ الَّذي كانَ فرانْسيس يَرْكَبُ فَوْقَ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ المَعْزُ يَقودُها جاك ، ثُمَّ القِرْدُ يَرْكَبُ فَوْقَ ظَهْرِ الماعِزِ الَّتي يَتَغَذّى بِلَبَنِها ، وَبَعْدَها جاءَ إرْنِسْت مَعَ الخِرافِ ، وَمَشَيْتُ أنا في المُؤَخِّرَةِ . وَ كانَ الكَلْبانِ يَجْرِيانِ حَوْلَنا ، كَأَنَّما يُساعِدانِنا عَلى السَّيْرِ في صَفٍّ واحِدٍ .

وَعَبَرْنا الجِسْرَ بِحِرْصٍ ، واحِداً بَعْدَ الآخَرِ ، وَكُنْتُ أخْشى أنْ يَنْهارَ تَحْتَ ثِقْلِ البَقَرَةِ ؛ لِذَلِكَ تَرَكْنا الحِمارَ يَبْدَأُ العُبورَ . وَعِنْدَما وَجَدْنا الجِسْرَ قَدْ تَحَمَّلَهُ عَبَرَتِ البَقَرَةُ بَعْدَهُ ، ثُمَّ تَبِعَها الباقونَ .

وَ وَصَلْنا إلى المَكانِ الَّذي سَنُقيمُ فيهِ بَيْتَنا الجَديدَ .

قالَ فرِتْز : « يا لَها مِنْ أشْجارٍ رائِعَةٍ ! كَمْ هِيَ باسِقَةٌ ! »

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، فَلَمْ أكُنْ أتَصَوَّرُ أنَّها بِهَذِهِ الضَّخامَةِ . هَذا مَكانٌ مُمْتازٌ حَقّاً . إذا اسْتَطَعْنا أنْ نَتَسَلَّقَ واحِدَةً مِنْ هَذِهِ الأشْجارِ ، وَأنْ نُقيمَ بَيْتَنا فَوْقَها ؛ فَسَنَكونُ في مَأْمَنٍ مِنْ كُلِّ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ . »

وَقَيَّدْنا الحَيَواناتِ لِكَيْ لا تَبْتَعِدَ عَنّا ، وَأطْلَقْنا سَراحَ الدَّجاجاتِ . وَأشْعَلَتْ زَوْجَتي ناراً ، وَطَهَتْ لَنا طَعاماً .

الفصل السابع

سُلَّمٌ مِنَ الحِبالِ

عِنْدَما فَرَغْنا مِنْ تَناوُلِ الطَّعامِ ، قُلْتُ : « لا بُدَّ أنْ نَنامَ عَلى الأرْضِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ؛ لأنَّني لا أرى طَريقَةً نَسْتَطيعُ أنْ نَصْعَدَ بِها هَذا المَساءَ فَوْقَ الشَّجَرَةِ . »

ثُمَّ ذَهَبْتُ أنا وَفرِتْز وَإرْنِسْت إلى الشّاطِئِ ؛ لِنَبْحَثَ عَنْ شَيْءٍ يَصْلُحُ لِصُنْعِ سُلَّمٍ . وَكانَ الشّاطِئُ مُغَطّى بِقِطَعِ أخْشابٍ مِنْ مُخْتَلِفِ الأحْجامِ ، جَلَبَتْها الأمْواجُ إلى هُناكَ مِنَ السَّفينَةِ .

قالَ فرِتْز : « قَدْ يَكونُ مِنَ الصَّعْبِ صُنْعُ سُلَّمٍ مِنْ هَذِهِ القِطَعِ الخَشَبِيَّةِ ، كَما سَيَكونُ ثَقيلَ الوَزْنِ جِدّاً . »

صاحَ إرْنِسْت : « أنْظُروا هُناكَ ، ها هُوَ ذا الشَّيْءُ الَّذي نَحْتاجُ إلَيْهِ تَماماً : الخَيْزُرانُ ! »

وَقَطَعْتُ مِنْ غابِ الخَيْزُرانِ قِطَعًا يَبْلُغُ طولُ الواحِدَةِ مِنْها حَوالى مِتْرَيْنِ ، ثُمَّ رَبَطْناها مَعًا حَتّى يُمْكِنَ حَمْلُها ، ثُمَّ قَطَعْتُ بَعْضَ العِصِيِّ المُسْتَقيمَةِ ، وَقُلْتُ : « بِهَذا الخَيْزُرانِ أَسْتَطيعُ أَنْ أَصْنَعَ قَوْسًا ، كَما أَسْتَطيعُ صُنْعَ سِهامٍ مِنْ هَذِهِ العِصِيِّ .»

وَعُدْنا إِلى الشَّجَرَةِ وَنَحْنُ نَحْمِلُ قِطَعَ الخَيْزُرانِ ، وَ وَضَعْناها عَلى الأَرْضِ ، وَ قُلْتُ : « هَذا الغُصْنُ الكَبيرُ يَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ حَوالى عَشَرَةِ أَمْتارٍ ، فَلا بُدَّ أَنْ نَعْرِفَ مِقْدارَ ما لَدَيْنا مِنْ حِبالٍ . إِنَّ مَعَنا أَكْثَرَ مِنْ عِشْرينَ مِتْرًا مِنَ الحِبالِ الرَّفيعَةِ ، وَقِطْعَةً أُخْرى أَطْوَلَ مِنَ الحِبالِ الرَّفيعَةِ ، وَكَمِّيَّةً كَبيرَةً مِنَ الخُيوطِ . وَسَنَضَعُ الآنَ عَلى الأَرْضِ قِطْعَتَيْنِ طَويلَتَيْنِ مِنَ الحِبالِ ، ثُمَّ نَقْطَعُ مِنَ الخَيْزُرانِ قِطَعًا طولُ كُلٍّ مِنْها نِصْفُ مِتْرٍ . هَيّا ، يا فِرِتْز ، اِقْطَعْ أَنْتَ الخَيْزُرانَ ، وَسَيُعاوِنُني إِرْنِسْت في وَضْعِ الحِبالِ .» وَ هَكَذا بَدَأْنا العَمَلَ .

قُلْتُ : « وَالآنَ ، يَجِبُ أَنْ نُثَبِّتَ قِطَعَ الخَيْزُرانِ عَلى الحَبْلَيْنِ ؛ لِنَصْنَعَ دَرَجاتِ السُّلَّمِ ، وَبِهَذا نَحْصُلُ عَلى سُلَّمٍ مِنَ الحِبالِ .»

وَانْهَمَكْنا في عَمَلٍ شاقٍّ جِدًّا . وَبَعْدَ عِدَّةِ ساعاتٍ ، أَصْبَحَ سُلَّمُنا جاهِزًا ، ثُمَّ جَلَسْتُ لأَصْنَعَ قَوْسًا مِنَ الخَيْزُرانِ .

قُلْتُ : « إِرْنِسْت ، اِجْمَعْ بَعْضَ الرّيشِ ، وَاصْنَعْ سَهْمًا مِنْ عَصًا.

ضَعْ مِسْمارًا كَبيرًا في أَحَدِ طَرَفَيْهِ ، وَبَعْضَ الرّيشِ في الطَّرَفِ الآخَرِ .»

صاحَ جاك : « ماذا نَعْمَلُ بِقَوْسٍ وَسَهْمٍ ؟ هَلْ أَلْعَبُ بِهِما ؟»

قُلْتُ لَهُ : « إِنَّني لا أَصْنَعُ لُعْبَةً ، يا جاك ، بَلْ سَأَسْتَخْدِمُهُما في الصَّيْدِ . وَسَرْعانَ ما سَيَكونُ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْكُمْ قَوْسٌ وَسِهامٌ ، فَلا بُدَّ أَنْ نَحْرِصَ عَلى ما لَدَيْنا مِنْ بارودٍ ؛ فَإِذا كانَ ثَمَّةَ مُتَوَحِّشونَ ، فَإِنَّهُمْ سَيَكونونَ مَصْدَرَ خَطَرٍ عَلَيْنا فَوْقَ الجَزيرَةِ ، وَسَنَحْتاجُ إِلى البارودِ لِنُدافِعَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنا .»

وَعِنْدَما تَمَّ إِعْدادُ القَوْسِ وَالسِّهامِ ، رَبَطْتُ قِطْعَةَ خَيْطٍ طَويلَةً إِلى سَهْمٍ ، وَقَذَفْتُ بِالسَّهْمِ إِلى أَعْلى ، فَتَخَطّى الغُصْنَ الكَبيرَ المُرْتَفِعَ ، ثُمَّ سَقَطَ مِنَ النّاحِيَةِ الأُخْرى ، وَطَرَفُ الخَيْطِ مُثَبَّتٌ بِهِ .

قُلْتُ : « الآنَ سَنَرْبُطُ قِطْعَةَ حَبْلٍ رَفيعَةً إِلى الخَيْطِ ، ثُمَّ نَشُدُّ الحَبْلَ فَوْقَ الغُصْنِ .» وَ نَفَّذْنا ذَلِكَ .

قالَ إِرْنِسْت : « وَالآنَ سَنَرْبُطُ سُلَّمَ الحِبالِ إِلى هَذا الحَبْلِ الرَّفيعِ ، ثُمَّ نَجْذِبُ الحَبْلَ حَتّى يَصِلَ السُّلَّمُ إِلى الغُصْنِ ؛ وَعِنْدَئِذٍ نَمْنَعُ السُّلَّمَ مِنَ السُّقوطِ بِاسْتِخْدامِ الحَبْلِ ، إِلى أَنْ يَصْعَدَ واحِدٌ مِنّا

وَيُثَبِّتَ السُّلَّمَ إلى الغُصْنِ .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، وَعَلَيْكَ أَنْتَ أَنْ تَصْعَدَ ؛ لأَنَّكَ أَخَفُّ وَزْنًا مِنْ فرِتْز .» وَأَمْسَكْتُ أنا وَفرِتْز بِالحَبْلِ ، إلى أَنْ تَسَلَّقَ إرْنِسْت السُّلَّمَ . وَسَرْعانَ ما تَمَّ تَثْبيتُهُ إلى الغُصْنِ .

قُلْتُ : « لَقَدْ قُمْنا اليَوْمَ بِعَمَلٍ جَيِّدٍ ، وَيَجِبُ الآنَ أَنْ نُقَيِّدَ الحَيَواناتِ ، ثُمَّ نَنامَ عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ ، وَنَبْدَأَ غَدًا في بِناءِ بَيْتِنا فَوْقَ الشَّجَرَةِ .»

قالَ جاك : « اُنْظُروا ، لَقَدْ تَمَّ اسْتِخْدامُ سُلَّمِ الحِبالِ فِعْلاً !»

وَنَظَرْتُ ، فَوَجَدْتُ الدَّجاجاتِ قَدْ ذَهَبَتْ لِتَنامَ فَوْقَهُ ، كُلُّ دَجاجَةٍ عَلى دَرَجَةٍ مِنْ دَرَجاتِهِ .

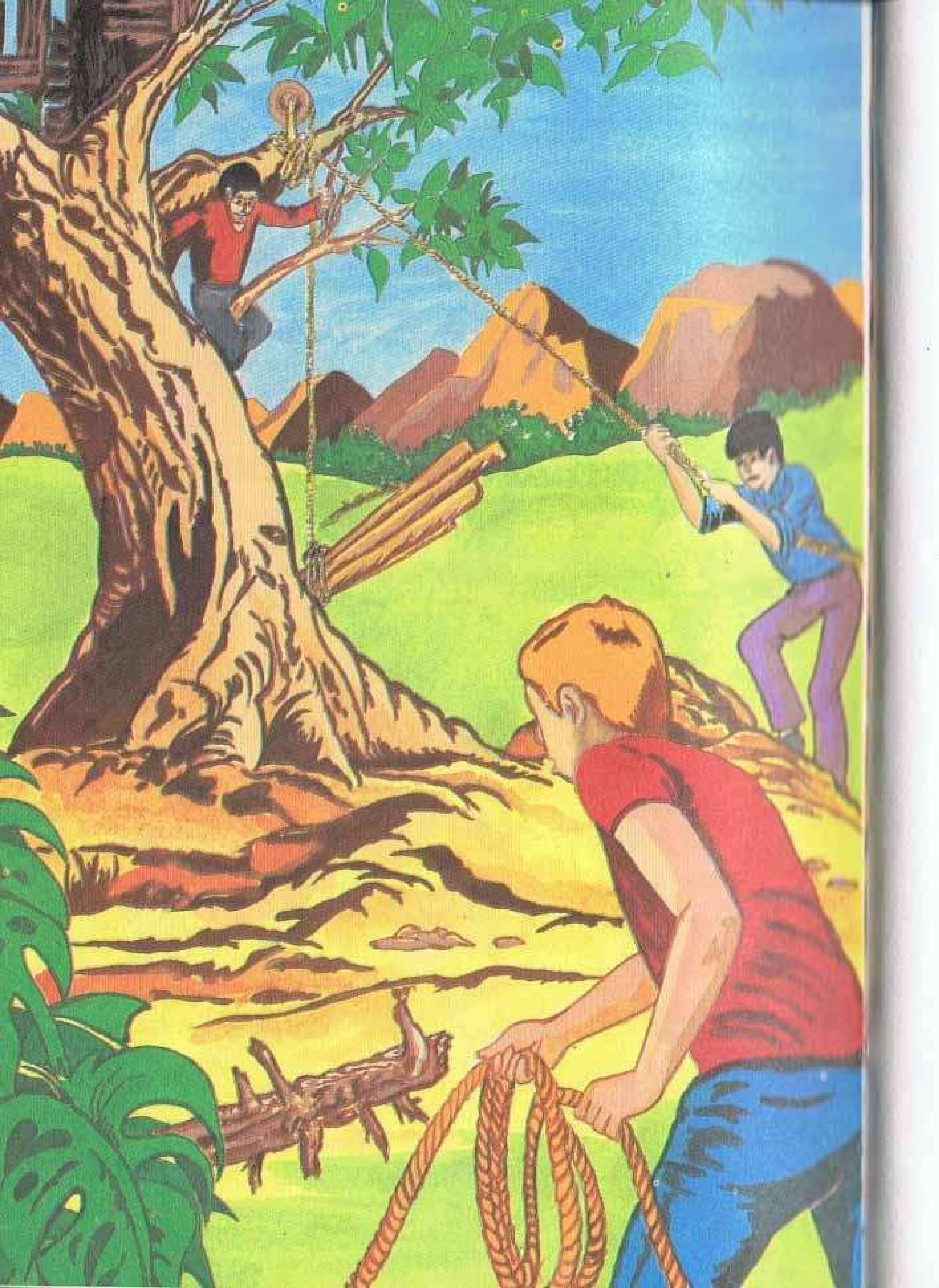
وَأَشْعَلْتُ نارًا كَبيرَةً لإبْعادِ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ عَنّا ، وَقَرَّرْتُ أَنْ أَبْقى مُسْتَيْقِظًا لِلْحِراسَةِ .

الفصل الثامن

بَيْتٌ فَوْقَ الشَّجَرَةِ

في البِدايَةِ كُنْتُ شَديدَ القَلَقِ ، وَشَعَرْتُ أَنَّنا في مَكانٍ لا يَتَوافَرُ فيهِ الأَمانُ الكامِلُ ، وَسَمِعْتُ صَوْتًا غَريبًا . لا ، لَمْ يَكُنْ سِوى صَوْتِ الأَوْراقِ المُتَساقِطَةِ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ . وَبَدَأَتِ النّارُ تَخْبو . ما هَذِهِ الظِّلالُ ؟ هَلْ هُناكَ وَحْشٌ يَتَسَلَّلُ مُقْتَرِبًا مِنّا ؟ إنَّهُ يَقْتَرِبُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، وَ وَقَفْتُ ، وَأَضَفْتُ مَزيدًا مِنَ الأَخْشابِ إلى النّارِ . وَأَخيرًا شَعَرْتُ بِالأَمانِ ، وَذَهَبْتُ لأَنامَ . وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ كانَ ضَوْءُ النَّهارِ يَغْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَقَدْ سَبَقَني الباقونَ كُلُّهُمْ إلى الاسْتيقاظِ . وَتَناوَلْنا طَعامَ الإفْطارِ ، ثُمَّ بَدَأْنا العَمَلَ مَرَّةً أُخْرى .

حَلَبَتْ زَوْجَتي البَقَرَةَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى الشّاطِئِ مَعَ إرْنِسْت وَجاك وَفرانْسِيس ، وَالحِمارِ لإحْضارِ الخَشَبِ الَّذي قَدْ نَحْتاجُ إلَيْهِ لِبِناءِ البَيْتِ .



وَصَعِدْتُ أنا وَفرِتْز فَوْقَ السُّلَّمِ إلى أعْلى الشَّجَرَةِ ؛ لِوَضْعِ خُطَّةِ بِناءِ بَيْتِنا .

قُلْتُ : « هَذِهِ الأغْصانُ مَتينَةٌ وَمُتَقارِبَةٌ ، كَما أنَّها تَتَفَرَّعُ في اسْتِقامَةٍ مِنَ الشَّجَرَةِ . إنَّ أرْضِيَّةَ البَيْتِ يُمْكِنُ أنْ تَكونَ هُنا ، وَسَيَكونُ جِذْعُ الشَّجَرَةِ نَفْسُهُ أحَدَ جَوانِبِ البَيْتِ . »

نَظَرَ فرِتْز إلى أعْلى وَقالَ : « هَذِهِ الأغْصانُ الَّتي تَرْتَفِعُ فَوْقَنا ، يُمْكِنُ أنْ نُثَبِّتَ السَّقْفَ فَوْقَها . وَلَكِنْ أيُّ نَوْعٍ مِنَ السَّقْفِ ؟ »

قُلْتُ : « سَنَضَعُ قُماشَ الشِّراعِ فَوْقَ هَذِهِ الأغْصانِ ، ثُمَّ نَتْرُكُهُ يَتَدَلَّى إلى الأرْضِيَّةِ مِنَ الجانِبَيْنِ . »

وَكانَ هَذا الاقْتِراحُ ، كَما سَيَتَّضِحُ فيما بَعْدُ ، خَطأً جَسيمًا . وَكَمْ كانَتْ فِكْرَتي غَيْرَ سَليمَةٍ ! أمّا في ذَلِكَ الوَقْتِ ، فَقَدْ كُنْتُ أنا وَفرِتْز سَعيدَيْنِ لِلْغايَةِ بِأفْكارِنا السّاذَجَةِ !

قُلْتُ : « أمّا هَذا الجانِبُ الرّابِعُ ، فَسَنَتْرُكُهُ مَفْتوحًا ، فَمِنْهُ نَسْتَطيعُ أنْ نُراقِبَ ما حَوْلَنا . وَلَعَلَّنا نَسْتَطيعُ إعْدادَ مَكانٍ ، يُمْكِنُنا أنْ نَجْلِسَ فيهِ خارِجَ البَيْتِ خِلالَ النَّهارِ . »

قالَ فرِتْز : « سَيَكونُ بَيْتًا جَميلاً . لَكِنْ ، لَقَدِ اسْتَغْرَقوا وَقْتًا

طَويلاً في إحْضارِ الخَشَبِ .»

وَأخيراً ظَهَرَتْ زَوْجَتي وَإرْنِسْت ، وَمَعَهُما الحِمارُ يَجُرُّ خَلْفَهُ حِمْلاً كَبيراً مِنَ الخَشَبِ ، في حين كانَ هُناكَ مَزيدٌ مِنَ الخَشَبِ قَدْ رَبَطوه فَوْقَ ظَهْرِهِ ، وَقَدْ جَلَسَ فرانْسيس عَلى قِمَّتِهِ . وَأنْزَلوا الخَشَبَ ، وَعادوا في الحالِ لإحْضارِ المَزيدِ مِنْهُ .

قالَ فرِتْز : « كَيْفَ نَنْقُلُهُ إلى أعْلى ؟ هَلْ أحْمِلُهُ وَأصْعَدُ بِهِ السُّلَّمَ ؟»

قُلْتُ : « بَلْ يَجِبُ أنْ نَرْفَعَها إلى أعْلى .»

قالَ فرِتْز : « بِاسْتِخْدامِ عَجَلَةٍ – عَجَلَةٍ تُسْتَخْدَمُ لِرَفْعِ الأشْياءِ إلى أعْلى . ما اسْمُها ؟»

قُلْتُ : « بَكَرَةٌ .»

قالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، بَكَرَةٌ . أيْنَ رَأَيْتُ بَكَرَةً يا تُرى ؟ إنَّها في صُنْدوقِ الأدواتِ الَّذي مَعَ إرْنِسْت .»

وَ وَجَدَ فرِتْز البَكَرَةَ ، وَثَبَّتْناها إلى غُصْنٍ ، ثُمَّ جَذَبْنا قِطَعَ الأخْشابِ إلى أعْلى . وَقامَتْ زَوْجَتي مَعَ إرْنِسْت بِرِحْلَتَيْنِ

إضافِيَّتَيْنِ إلى الشّاطِئِ ، في حين بَقِيَ مَعَنا جاك يَرْبُطُ قِطَعَ الخَشَبِ بِالحَبْلِ ، وَيَجْذِبُها فرِتْز إلى أعْلى . وَانْهَمَكْتُ أنا في تَثْبيتِ أرْضِيَّةِ البَيْتِ ، في حين قامَتْ زَوْجَتي بِإعْدادِ الطَّعامِ .

عِنْدَما أقْبَلَ المَساءُ كانَتْ أرْضِيَّةُ البَيْتِ قَدْ وُضِعَت ، ثُمَّ بَسَطْنا قُماشَ الشِّراعِ فَوْقَ الأغْصانِ العالِيَةِ ، وَثَبَّتْنا أطْرافَهُ السُّفْلِيَّةَ إلى الأرْضِيَّةِ بِالمَساميرِ ، بَعْدَ أنْ غَطَّيْنا بِهِ جانِبَيْنِ مِنْ جَوانِبِ البَيْتِ ، أمّا الجانِبُ الرّابِعُ فَكانَ يَسْمَحُ لَنا بِأنْ نُطِلَّ بِسُهولَةٍ عَلى المِنْطَقَةِ المُحيطَةِ بِنا ، كَما أنَّ كَثيراً مِنَ الهَواءِ البارِدِ كانَ يَهُبُّ مِنْهُ إلى داخِلِ البَيْتِ .

وَنَزَلْتُ السُّلَّمَ أنا وَفرِتْز .

قُلْتُ : « لَقَدِ انْتَهَيْنا مِنْ إقامَةِ مَنْزِلِنا .» ثُمَّ شاهَدْتُ بَعْضَ قِطَعِ الخَشَبِ لَمْ تَزَلْ باقِيَةً حَوْلَنا ، فَأضَفْتُ : « غَداً ، سَنَصْنَعُ مِنْها مائِدَةً وَبَعْضَ المَقاعِدِ .»

وَكانَتْ زَوْجَتي قَدْ أعَدَّتْ لَنا طَعامًا مِنْ طائِرٍ كانَ إرْنِسْت قَدِ اصْطادَهُ ، وَهُوَ في طَريقِهِ لإحْضارِ الخَشَبِ . وَكانَ طائِراً عَجوزاً ، وَمَذاقُهُ يُشْبِهُ مَذاقَ السَّمَكِ ، لَكِنَّنا كُنّا نُحِسُّ بِجوعٍ شَديدٍ ، فَأكَلْناهُ . وَأشْعَلْنا ناراً لإبْعادِ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ عَنّا.

قُلْتُ : « سَنَنامُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ في بَيْتِنا الجَديدِ .» وَأسْرَعَ الصَّبِيّانِ الكَبيرانِ يَتَسَلَّقانِ السُّلَّمَ ، وَهُما يَحْمِلانِ مَعَهُما فِراشَهُما . وَكانَتْ زَوْجَتي مُتَخَوِّفَةً مِنْ تَسَلُّقِ السُّلَّمِ ، لكِنَّها وَصَلَتْ إلى أعْلاهُ بِسَلامٍ ، ثُمَّ وَضَعْتُ فرانْسيس فَوْقَ ظَهْري ، وَفَكَكْتُ السُّلَّمَ مِنَ الأوْتادِ المُثَبَّتَةِ في الأرْضِ ، الَّتي كُنّا قَدْ رَبَطْناهُ إلَيْها ، وَ تَسَلَّقْتُ السُّلَّمَ ، وَجَذَبْتُهُ خَلْفي إلى أعْلى .

قالَ جاك : « ها نَحْنُ أولاءِ الآنَ في أمانٍ تامٍّ داخِلَ بَيْتِ الشَّجَرَةِ ، فَلا يَسْتَطيعُ شَيْءٌ أنْ يَصْعَدَ إلَيْنا هُنا .»

فَجْأةً صاحَ فِرِتْز : « أيْنَ القِرْدُ ؟»

قالَ إرْنِسْت مُشيراً إلى فِراشِ فِرِتْز : « لَقَدْ سَبَقَكَ إلى فِراشِكَ ! فَلا شَيْءَ يَسْتَطيعُ التَّسَلُّقَ إلى هُنا ما عَدا القِرْدَ ؛ فَإنَّهُ يَسْتَطيعُ تَسَلُّقَ أيِّ شَيْءٍ .»

وَأبْقَيْتُ بُنْدُقِيَّتي إلى جِواري ؛ لأنَّني ظَلَلْتُ أحِسُّ بِعَدَمِ الأمانِ بِالنِّسْبَةِ لِلْحَيَواناتِ ، لكِنَّ اللَّيْلَ مَضى بِهُدوءٍ .

الفصل التاسع

العَوْدَةُ إلى الخيْمَةِ

بَعْدَ الإفْطارِ انْصَرَفْتُ إلى العَمَلِ أنا وَفِرِتْز ، لِنَصْنَعَ مائِدَةً مِنْ بَعْضِ بَقايا الخَشَبِ .

وَفَجْأةً سَمِعْنا صَوْتَ طَلْقَةٍ عالِيَةٍ ، وَسَقَطَ طائِرٌ صَغيرٌ عِنْدَ أقْدامِنا.

قالَ إرْنِسْت وَهُوَ يَقْتَرِبُ لِيَلْتَقِطَهُ : « هَذِهِ طَلْقَةٌ مُوَفَّقَةٌ .»

قُلْتُ : « بَلْ لَيْسَتْ مُوَفَّقَةً ؛ فَمِنْ أسْوَإِ الأشْياءِ أنْ نُضَيِّعَ البارودَ عَلى هَذا النَّحْوِ . يَجِبُ أنْ نَسْتَخْدِمَ البَنادِقَ لِصَيْدِ الحَيَواناتِ الكَبيرَةِ اللازِمَةِ لِطَعامِنا ، أمّا بِالنِّسْبَةِ لِصِغارِ الطُّيورِ وَالحَيَواناتِ ، فَلا بُدَّ أنْ نَسْتَخْدِمَ القَوْسَ وَالسِّهامَ . تَأمَّلْ ، يا إرْنِسْت ، القَوْسَ وَالسِّهامَ الَّتي صَنَعْتُها ، وَحاوِلْ أنْ تَصْنَعَ خَيْراً مِنْها ، ثُمَّ تَعَلَّمْ كَيْفَ تَسْتَخْدِمُها .»

وَعِنْدَما حَلَّ الظُّهْرُ وَضَعْنا بَعْضَ البَراميلِ حَوْلَنا ، وَتَأَهَّبْنا لِتَناوُلِ الطَّعامِ ، وَنَحْنُ جُلوسٌ – لِأَوَّلِ مَرَّةٍ – حَوْلَ مائِدَةٍ .

تَساءَلَتْ زَوْجَتي : « أَيْنَ إِرْنِسْت وَجاك ؟»

قُلْتُ : « دَعونا نَبْدَإِ الطَّعامَ ، وَمَنْ يَتَأَخَّرْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ طَعاماً !»

قالَتْ زَوْجَتي : « أَخْشى أَنْ يَكونَ قَدْ وَقَعَ لَهُما مَكْروهٌ . أَخافُ مِنْ هُجومِ حَيَوانٍ مُفْتَرِسٍ عَلَيْهِما . لا أَسْتَطيعُ تَذَوُّقَ الطَّعامِ ما لَمْ أَعْرِفْ أَيْنَ هُما .»

وَهَكَذا انْتَظَرْنا .

أَخيراً قُلْتُ : « أَنا مُوْقِنٌ مِنْ أَنَّ شَيْئاً لَمْ يَحْدُثْ لَهُما . إِنَّهُما صَغيرانِ مُنْدَفِعانِ يَنْسَيانِ الوَقْتَ . هَيّا ضَعي الطَّعامَ عَلى المائِدَةِ .»

وَما إِنْ فَعَلَتْ زَوْجَتي ما طَلَبْتُهُ مِنْها حَتّى ظَهَرَ إِرْنِسْت وَجاك يَحْمِلانِ الأَقْواسَ وَالسِّهامَ .

قَبْلَ أَنْ أَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ ، قالَ جاك وَهُوَ يُمْسِكُ طائِراً صَغيراً جِدّاً اسْتَطاعَ أَنْ يَصيدَهُ بِالقَوْسِ : « انْظُروا ، وَانْظُروا أَيْضاً ما الَّذي أَمْسَكَهُ إِرْنِسْت : أَرْنَبٌ .»

وَقَدْ كانَ حَيَواناً صَغيراً ، يُشْبِهُ الأَرْنَبَ كَثيراً .

قُلْتُ : « أَنا سَعيدٌ جِدّاً بِما حَقَّقْتُماهُ ، لَكِنَّني غاضِبٌ لِتَأَخُّرِكُما. لَقَدْ خَشيَتْ أُمُّكُما أَنْ تَكونا قَدْ تَعَرَّضْتُما لِخَطَرٍ . هَيّا اجْلِسا لِتَناوُلِ الطَّعامِ .»

وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْنا إِلا الخُبْزُ وَاللَّحْمُ لِلْغَداءِ ، وَكانَ الخُبْزُ جافا جِدّاً ، أَمّا اللَّحْمُ فَكانَ مِنَ الحَيَوانِ الَّذي اصْطَدْتُهُ بِالأَمْسِ .

قالَتْ زَوْجَتي : « لَقَدْ تَرَكْتُ بَعْضَ الأَشْياءِ في الخَيْمَةِ ، فَإِذا جِئْتُمْ بِها ، يُمْكِنُ أَنْ أُقَدِّمَ لَكُمْ طَعاماً أَفْضَلَ ، كَما أَنَّ البَطَّ لا يَزالُ هُناكَ .»

وَبَدَأْنا المَسيرَةَ يَتَقَدَّمُنا الكَلْبانِ ، وَقَدْ رَكِبَ القِرْدُ فَوْقَ ظَهْرِ طِرْك ، وَبَعْدَها جاءَ فِرِتْز وَإِرْنِسْت وَجاك ، وَمَعَهُمْ أَقْواسُهُمْ وَسِهامُهُمْ ، وَفي المُؤَخِّرَةِ سِرْتُ أَنا وَزَوْجَتي وَفرانْسِيس ، وَقَدْ حَمَلْتُ مَعي كيساً لِنُحْضِرَ فيهِ مِلْحاً .

وَأَثْناءَ سَيْرِنا عَلى الشّاطِئِ رَأَيْتُ أَنَّهُ لا تَزالُ كَمِّيَّةٌ كَبيرَةٌ مِنَ الخَشَبِ مُتَناثِرَةً عَلَيْهِ ، كَما لاحَظْتُ وُجودَ قِطْعَتَيْنِ طَويلَتَيْنِ مِنَ الخَشَبِ ، لَهُما نَفْسُ الحَجْمِ وَالشَّكْلِ ، وَقَدِ انْحَنَتْ كُلٌّ مِنْهُما

مِنْ أَحَدِ طَرَفَيْها .

تَساءَلْتُ في نَفْسي : « تُرى أَيْنَ سَبَقَ لي أَنْ شاهَدْتُ قِطَعًا مِنَ الخَشَبِ تُشْبِهُ في شَكْلِها هاتَيْنِ القِطْعَتَيْنِ ؟» تَذَكَّرْتُ .. في سويسرا بِغَيْرِ شَكٍّ .

وَ وَصَلْنا إلى الخَيْمَةِ ، وَ وَجَدْنا كُلَّ شَيْءٍ كَما تَرَكْناهُ ، وَذَهَبَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا لِيَبْحَثَ عَنِ الأَشْياءِ الَّتي يَحْتاجُ إلَيْها : ذَهَبَ فِرِتْز لِيُحْضِرَ بِرْميلاً مِنَ البارودِ ، وَبَعْضَ الطَّلَقاتِ الَّتي كُنّا قَدْ تَرَكْناها خَلْفَنا ، وَذَهَبْتُ أَنا لإِحْضارِ الزُّبْدِ لِزَوْجَتي .

وَأَشارَتْ زَوْجَتي إلى كيسٍ ، تَذَكَّرْتُ أَنَّهُ كانَ مَوْضوعًا في القارِبِ .

سَأَلْتُها : « ما هَذا ؟»

قالَتْ : « هَذا ما كُنْتُ أُريدُ إضافَتَهُ إلى طَعامِنا . إنَّها بَطاطِسُ ، سَأَسْلُقُها لِتَأْكُلوها .»

قُلْتُ : « إنَّ المَوْجودَ مِنْها قَليلٌ جدًّا يَكادُ يَكْفي لِوَجْبَةٍ واحِدَةٍ فَقَطْ ، لَكِنْ إذا زَرَعْناها سَيَكونُ لَدَينا مِنْها الشَّيْءُ الكَثيرُ في العامِ المُقْبِلِ ، بِما يَكْفينا لِوَجَباتٍ كَثيرَةٍ .»

قالَ جاك ، الَّذي كانَ يُصْغي إلى حَديثِنا : « نَسْتَطيعُ أَنْ نَأْكُلَ هَذِهِ البَطاطِسَ ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَجِدَ بَطاطِسَ بَرِّيَّةً مِثْلَما عَثَرْنا عَلى قَصَبِ السُّكَّرِ وَجَوْزِ الهِنْدِ .»

قُلْتُ : « لا ، يا جاك ؛ البَطاطِسُ البَرِّيَّةُ تَنْمو عَلى الجِبالِ العالِيَةِ ، كَما أَنَّها صَغيرَةُ الحَجْمِ ، وَمَذاقُها لَيْسَ مَقْبولاً عِنْدَ الأَكْلِ . إنَّ هَذِهِ البَطاطِسَ الَّتي مَعَنا تَخْتَلِفُ كَثيراً عَنِ البَطاطِسِ البَرِّيَّةِ . لا بُدَّ أَنْ تَكونَ لَنا حَديقَتُنا ، الَّتي نَزْرَعُ فيها هَذِهِ البَطاطِسَ الجَيِّدَةَ .»

سَأَلَ جاك : « وَلَكِنْ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ نَأْكُلَهُ الآنَ ؟»

أَجَبْتُ: « سَأُدَبِّرُ الآنَ ما الَّذي يُمْكِنُ أَنْ نَتَناوَلَهُ ، إلى أَنْ يَتِمَّ إعْدادُ حَديقَتِنا . هُناكَ بَعْضُ النَّباتاتِ البَرِّيَّةِ ، الَّتي يُمْكِنُنا اسْتِخْدامُها بَدَلاً مِنَ البَطاطِسِ . وَالآنَ ، اذْهَبْ مَعَ إرْنِسْت ، وَحاوِلا الإِمْساكَ بِالبَطِّ .»

وَأَلْقى جاك قِطَعًا صَغيرَةً مِنَ الطَّعامِ في ماءِ النَّهْرِ ، وَأَمْسَكَ إرْنِسْت البَطَّ عِنْدَما اقْتَرَبَ لِيَأْكُلَ . وَبَيْنَما هُما يَقومانِ بِهَذِهِ المُهِمَّةِ ، ذَهَبْتُ أَنا وَفِرِتْز لإِحْضارِ المِلْحِ .

كانَتْ مِياهُ البَحْرِ الَّتي تَجِفُّ فَوْقَ الصُّخورِ ، تَتْرُكُ المِلْحَ في مَكانِها بَعْدَ تَبَخُّرِها ، واسْتَطَعْنا أنْ نَجْمَعَ كَمِّيَّةً كافِيَةً ، يُمْكِنُ أنْ تُعْطِيَ مَذاقًا مَعْقولاً لِطَعامِنا . وَإذا كُنْتُ قَدْ قُلْتُ : ما يَكْفي لإعطاءِ مَذاقٍ لِطَعامِنا ، فَكَمْ أخْطَأنا عِنْدَما لَمْ نُفَكِّرْ في أخْذِ مِلْحٍ يَصْلُحُ لأكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ !

وَتابَعْنا السَّيْرَ عَلى شاطِئِ النَّهْرِ ، وَكانَ البَطُّ يُصْدِرُ ضَجَّةً عالِيَةً ضَحِكَ لَها الأوْلادُ ، حَتَى نَسوا ثِقْلَ ما يَحْمِلونَ . أمّا أنا فَقَدْ قُلْتُ لِنَفْسي : « لِماذا نَحْمِلُ هَذِهِ الأشْياءَ عَلى ظُهورِنا ، وَبَيْنَ أيْدينا طَريقَةٌ أفْضَلُ لِنَقْلِها ؟»

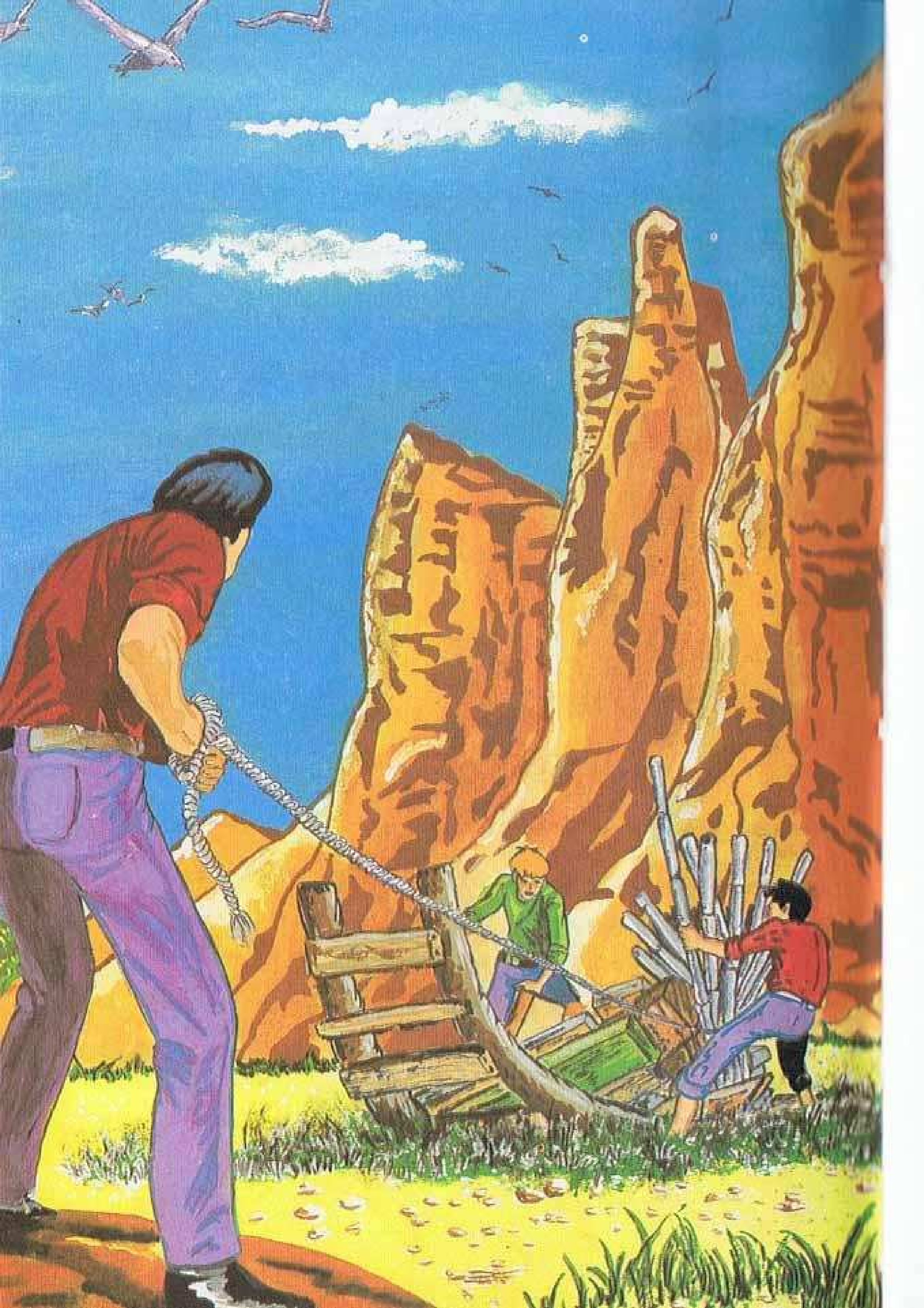
الفصل العاشر

الزَّحّافَةُ

كانَ بِرْميلُ الزُّبْدِ ثَقيلاً ، فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لا بُدَّ أنْ نَجِدَ وَسيلَةً نَنْقُلُ بِها هَذِهِ الأشْياءَ الثَّقيلَةَ .»

وَ فَكَّرْتُ في حَيَواناتِنا الَّتي رَبَطْناها إلى جِذْعِ الشَّجَرَةِ أثْناءَ اللَّيْلِ الحِمارِ والمَعْزِ وَالبَقَرَةِ . إنَّها لَيْسَتْ في أمانٍ ، لا بُدَّ أنْ نُقيمَ لَها حَظائِرَ ، وَسَيَحْتاجُ الأمْرُ إلى خَشَبٍ ، بَلْ إلى كَمِّيَّةٍ أكْبَرَ كَثيراً مِنَ الَّتي اسْتَخْدَمْناها لِصُنْعِ أرْضِيَّةِ بَيْتِنا ، كَما سَنَحْتاجُ أيْضًا إلى كَمِّيَّةٍ مِنْ الخَيْزُرانِ. لا يَسْتَطيعُ الحِمارُ وحْدَهُ حَمْلَ الكَثيرِ ؛ فَلا بُدَّ مِنْ صُنْعِ زَحّافَةٍ .

إنَّ هاتَيْنِ القِطْعَتَيْنِ مِنَ الخَشَبِ اللَّتَيْنِ رَأَيْتُهُما عَلى الشّاطِئِ ، لَهُما الشَّكْلُ المُناسِبُ تَمامًا لِصُنْعِ قاعِدَةِ الزَّحّافَةِ . وَقَرَّرْتُ أنْ أصْحَبَ مَعي إرْنِسْت ؛ لأنَّهُ يَميلُ إلى حَدٍّ ما إلى الكَسَلِ ، كَما



أنَّهُ إذا لاحَ أيُّ خطَرٍ ، سيَكونُ فرِتز أكْثَرَ فائِدَةً للآخَرينَ .

وَمَعَ أوَّلِ ضَوْءٍ في النَّهارِ أيْقَظْتُ إرْنسْت ، وَنَزَلْنا بِهُدوءٍ مِنْ فَوْقِ السُّلَّمِ ، وَأخَذْتُ مَعِي المِنْشارَ وَالمِطْرَقَةَ وَبَعْضَ المَساميرِ ، وَقِطْعَةً مِنَ الحَبْلِ الرَّفيعِ . وَذَهَبْنا إلى المَكانِ الَّذي بِهِ قِطْعَتا الخَشَبِ ، ثُمَّ قطَعْنا قِطَعًا مُسْتَعْرِضَةً ثَبَّتْناها بِالمَساميرِ في هاتَيْنِ القِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ وَضَعْنا فَوْقَ الزَّحّافَةِ حِمْلاً مِنَ الأخْشابِ والخيْزُرانِ ، وَرَبطْتُ حَبْلاً في الجُزْءِ الأمامِيِّ مِنْها ، وَسَحَبْناها عَلى طولِ الشّاطِئِ بِسُهولَةٍ فَوْقَ الرِّمالِ .

وَما إنِ انْتَهَيْنا مِنْ تَناوُلِ طَعامِنا حَتّى سَمِعْنا ضَجَّةً عالِيَةً تَصْدُرُ عَنِ الدَّجاجِ ؛ فَقُلْتُ لِنَفْسي وَنَحْنُ نَجْري : « هُناكَ حَيَوانٌ يُحاوِلُ الفَتْكَ بِها .»

صاحَ إرْنسْت : « إنَّ القِرْدَ يُطارِدُ الدَّجاجاتِ وَيُمْسِكُ بِها .»

وَرَأيْنا القِرْدَ يَخْتَفي خَلْفَ شَجَرَةٍ وَهُوَ يَأكُلُ بَيْضَةً ، ثُمَّ ابْتَعَدَ وَهُوَ يَجْري إلى شَجَرَةٍ أخْرى ، وَجَرى إرْنسْت خَلْفَهُ ، وَسُرْعانَ ما عادَ وَمَعَهُ أرْبَعُ بَيْضاتٍ كانَ القِرْدُ يُخْفيها . وَذَهَبَتْ زَوْجَتي وَ ألْقَتْ نَظْرَةً عَلى الحَشائِشِ الَّتي اعْتادَ الدَّجاجُ أنْ يَعيشَ بَيْنَها .

قالَتْ : « إنَّ إحْدى الدَّجاجاتِ تَحْتَضِنُ البَيْضَ ، وَسَرْعانَ ما سَيَكونُ عِنْدَنا بَعْضُ الكتاكيتِ الصَّغيرَة . لا بُدَّ أنْ نُقيمَ مكانًا آخرَ لِلدَّجاجِ ، كَما يَجِبُ إبْعادُ القِرْدِ عَنْها .»

وَبَعْدَ الغَداءِ ، جَرَّ الحِمارُ الزّحّافَةَ إلى الشّاطِئِ ، تَحْتَ إشْرافي أنا وَإرْنِسْت ؛ وَذَلِكَ لإحْضارِ مَزيدٍ مِنَ الخَشَبِ وَالخَيْزُرانِ . وَأثْناءَ قِيامِنا بِتَحْميلِ الأشْياءِ فَوْقَ الزّحّافَةِ ، أطْلَقْنا سَراحَ الحِمارِ ، فَرَأى حَشائِشَ خَضْراءَ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النَّهْرِ ، فَعَبَرَهُ مِنْ فَوْقِ الجِسْرِ الَّذي كُنّا قَدْ أقَمْناهُ ، ثُمَّ اخْتَفى عَنْ أبْصارِنا .

قُلْتُ لإرْنِسْت : « لَنْ يَسْتَطيعَ أنْ يَذْهَبَ بَعيدًا . خُذِ الكَلْبَةَ فلورا ، وَاذْهَبْ لإعادَتِهِ . أمّا أنا فَإنّي أحِسُّ بِالحَرِّ الشَّديدِ ، وَأريدُ أنْ أسْبَحَ قَليلاً .»

وَاسْتَمْتَعْتُ كَثيرًا بِالسِّباحَةِ . وَعِنْدَما عُدْتُ وَجَدْتُ الحِمارَ مَرْبوطًا إلى شَجَرَةٍ ، لَكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ رُؤْيَةَ إرْنِسْت ، فَقُلْتُ لِنَفْسي : « لَعَلَّهُ يَتَمَشّى عَلى طولِ الشّاطِئِ .»

وَعِنْدَئِذٍ رَأيْتُهُ يَقِفُ فَوْقَ صَخْرَةٍ ، وَعِنْدَما رَآني صاحَ قائِلاً : « أنْظُرْ ، يا أبي . سَمَكَةٌ ! إنَّها أكْبَرُ سَمَكَةٍ رَأيْتُها في حَياتي . يَجِبُ أنْ نَصيدَها لِتَكونَ طَعامَنا في الغَداءِ .»

وَكانَتْ سَمَكَةً كَبيرَةً حَقًا ، لَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ نَصيدَها ؟ وَبِماذا ؟

قُلْتُ لَهُ : « تَعالَ ، يَجِبُ أنْ نَعودَ إلى البَيْتِ بِالزّحّافَةِ . ثَمَّةَ غُيومٌ في السَّماءِ ، وَأعْتَقِدُ أنَّ الرِّياحَ سَتَبْدَأُ في الهُبوبِ بِشِدَّةٍ .»

ثُمَّ نَظَرْتُ إلى المَكانِ الَّذي ألْقَتْ فيهِ الأمْواجُ بِالسَّفينَةِ فَوْقَ الصُّخورِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ مِنْها الكَثيرُ ، وَإذا هَبَّتْ عاصِفَةٌ أخْرى فَقَدْ تَخْتَفي كُلُّها تَحْتَ الماءِ . يَجِبُ أنْ نَقومَ بِزِيارَةٍ أخيرَةٍ إلى السَّفينَةِ ؛ لِنَأخُذَ مِنْها بَعْضَ الأشْياءِ الَّتي نَحْتاجُ إلَيْها بِشِدَّةٍ ؛ فَسَتَكونُ فُرْصَتَنا الأخيرَةَ . كَيْفَ وَصَلَ بِيَ الغَباءُ إلى هَذا الحَدِّ أثْناءَ رِحْلَتِنا الأخيرَةِ ، حينَ أحْضَرْنا الحَيَواناتِ ؟ ما الَّذي أحْضَرْناهُ غَيْرَها ؟ زُبْدٌ ، بَعْضُ اللَّحْمِ المُمَلَّحِ ، أغْطِيَةٌ لِلْفِراشِ ، دَقيقٌ ، بارودٌ ، وَبَعْضُ الكُتُبِ . وَكُنّا نُدْرِكُ عِنْدَئِذٍ أنَّنا قَدْ نُضْطَرُّ إلى البَقاءِ فَوْقَ الجَزيرَةِ وَقْتًا طَويلاً ، قَدْ يَكونُ عامًا أوْ عامَيْنِ أوْ أكْثَرَ ، وَقَدْ نَسْتَغْرِقُ عُمْرَنا كُلَّهُ ، فَما هِيَ الأشْياءُ الَّتي كانَ عَلَيْنا أنْ نُحْضِرَها مَعَنا ؟ لِماذا لَمْ أفَكِّرْ في الأشْياءِ الأخْرى الأكْثَرِ أهَمِّيَّةً ، الَّتي كانَ يَجِبُ إحْضارُها ؟

الفصل الحادي عشر

الزِّيارَةُ الثّانِيَةُ لِلسَّفينَةِ

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي اسْتَيْقَظْتُ أنا وَفرِتْز ، وَذَهَبْنا لِنُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى قارِبِنا . كانَتْ حالَتُهُ جَيِّدَةً ، لكِنَّنا كُنّا قَدِ اسْتَخْدَمْنا الشِّراعَ في صُنْعِ سَقْفٍ لِبَيْتِ الشَّجَرَةِ .

قالَ فرِتْز : « أعْتَقِدُ أنَّهُ يُمْكِنُنا الوُصولُ إلى السَّفينَةِ بِاسْتِخْدامِ المَجاديفِ ، وَسَيُعاوِنُنا النَّهْرُ عَلى الإبْحارِ أثْناءَ الذَّهابِ .»

قُلْتُ : « كَلامُكَ صَحيحٌ ، لكِنْ لا بُدَّ أنْ نُحْضِرَ شِراعًا آخَرَ مِنَ السَّفينَةِ ، لِيُبْحِرَ بِنا عِنْدَما يَكونُ القارِبُ ثَقيلاً وَمُحَمَّلاً بِمُخْتَلِفِ الأشْياءِ . إنَّ الهَواءَ لا يَزالُ يَهُبُّ مِنَ البَرِّ إلى البَحْرِ . سَنُسْرِعُ إلى البَيْتِ ، وَنُخْبِرُ الباقينَ أنَّنا سَنُبْحِرُ الآنَ ، وَأنَّنا سَنَقْضي اللَّيْلَ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ .»

وَعُدْنا بِسُرْعَةٍ ، فَقالوا إنَّهُمْ سَيُقابِلونَنا حينَ نَعودُ وَمَعَهُمُ الزَّحّافَةُ ؛ لِنَحْمِلَ فَوْقَها ما سَنُحْضِرُهُ مِنْ أشْياءَ .

وَ وَصَلْنا السَّفينَةَ بِغَيْرِ صُعوباتٍ تُذْكَرُ ؛ فَقُلْتُ : « وَالآنَ ، يا فرِتْز ، ما هِيَ الأشْياءُ الَّتي نَحْتاجُ إلَيْها أكْثَرَ مِنْ غَيْرِها ؟»

أجابَني : « لا أسْتَطيعُ أنْ أتَذَكَّرَ إلا شَيْئًا واحِدًا صَغيرًا .»

قُلْتُ : « ما هُوَ ؟»

قالَ : « أنا في حاجَةٍ إلى شِصٍّ أصيدُ بِهِ تِلْكَ السَّمَكَةَ الكَبيرَةَ .»

قُلْتُ : « أنْتَ عَلى حَقٍّ ؛ فَنَحْنُ نَحْتاجُ إلى شُصوصٍ وَشِباكٍ لِصَيْدِ الأسْماكِ . لكِنَّنا لا نَسْتَطيعُ أنْ نَقْتَصِرَ في طَعامِنا عَلى السَّمَكِ وَاللَّحْمِ كُلَّ يَوْمٍ .»

أجابَ : « حَقا ، لا بُدَّ أنْ نَتَناوَلَ أيْضًا الخُبْزَ وَالفاكِهَةَ وَالبُقولَ وَالخَضْراواتِ .»

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ نَعْتَمِدَ في طَعامِنا عَلى ما نَسْتَطيعُ زِراعَتَهُ . لَعَلَّكَ تَتَذَكَّرُ السَّيِّدَ وِيلْكِنْز الَّذي كانَ مَعَنا عَلى السَّفينَةِ ، لَقَدْ كانَ مُسافِرًا لِيَبْدَأَ حَياةً جَديدَةً عَلى أرْضٍ جَديدَةٍ ، وَكانَ بُسْتانِيا . لَقَدْ

قالَ إنَّهُ أحْضَرَ مَعَهُ بَعْضَ أدواتِ فِلاحَةِ الحَدائِقِ وزِراعَتِها ، ولا بُدَّ أنْ نَعْثُرَ عَلى هَذِهِ الأدواتِ . سَأنْزِلُ الآنَ إلى غُرَفِ السَّفينَةِ وَأبْحَثُ ؛ لَعَلَّني أعْثُرُ عَلى مِجْرَفَةٍ أوْ شَوْكَةٍ أوْ أدواتٍ زِراعِيَّةٍ أخْرى ، وَاذْهَبْ أنْتَ لِتَبْحَثَ عَنْ شِصٍّ لِلصَّيْدِ .»

قالَ فرِتْز : « أتَذَكَّرُ أنَّ أحَدَ الضُّبّاطِ كانَ يَصيدُ مِنْ فَوْقِ حاجِزِ السَّفينَةِ ، وَأنا أعْرِفُ أيْنَ غُرْفَتُهُ . سَأذْهَبُ إلَيْها وَ أرى ما الَّذي يُمْكِنُ أنْ أعْثُرَ عَلَيْهِ فيها .»

نَزَلْتُ ، وَاسْتَطَعْتُ أنْ أجِدَ بَعْضَ الشُّوَكِ وَالمَجارِفِ . وَكُنْتُ آمُلُ أنْ أعْثُرَ عَلى بَعْضِ البُذورِ ، لكِنَّني لَمْ أجِدْ مِنْها شَيْئًا .

عِنْدَئِذٍ قُلْتُ لِنَفْسي : « لا بُدَّ أنْ تَكونَ عِنْدَنا بَعْضُ البُذورِ ، فَما هِيَ الحُبوبُ الَّتي يُمْكِنُ الحُصولُ عَلَيْها لِزِراعَتِها ؟ إنَّها البُقولُ !»

وَذَهَبْتُ إلى مَطْبَخِ السَّفينَةِ ، وَ وَجَدْتُ نَوْعَيْنِ مِنَ البُقولِ ، فَأخَذْتُ كَمِّيَّةً كَبيرَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ .

كانَتْ غُرْفَةُ السَّيِّدِ وِيلْكِنْز في مُؤَخَّرَةِ السَّفينَةِ ، وَهُوَ الجُزْءُ الَّذي أصْبَحَ مَغْمورًا تَحْتَ ماءِ البَحْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتِنا الحُصولُ عَلى أيَّةِ بُذورٍ هُناكَ . لكِنَّني افْتَرَضْتُ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ تَكونَ ثَمَّةَ نَباتاتٌ

أخْرى فَوْقَ الجَزيرَةِ يُمْكِنُ زِراعَتُها لِنَعْتَمِدَ عَلَيْها في طَعامِنا . وَ ما دامَتْ لَدَيْنا بُقولٌ وَ بَطاطِسُ ، فَسَيَكونُ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ .

وَعادَ فرِتْز ، وَقالَ : « لَقَدْ وَجَدْتُ صُنْدوقًا يَحْتَوي عَلى شُصوصٍ وَخُيوطٍ لِصَيْدِ السَّمَكِ .»

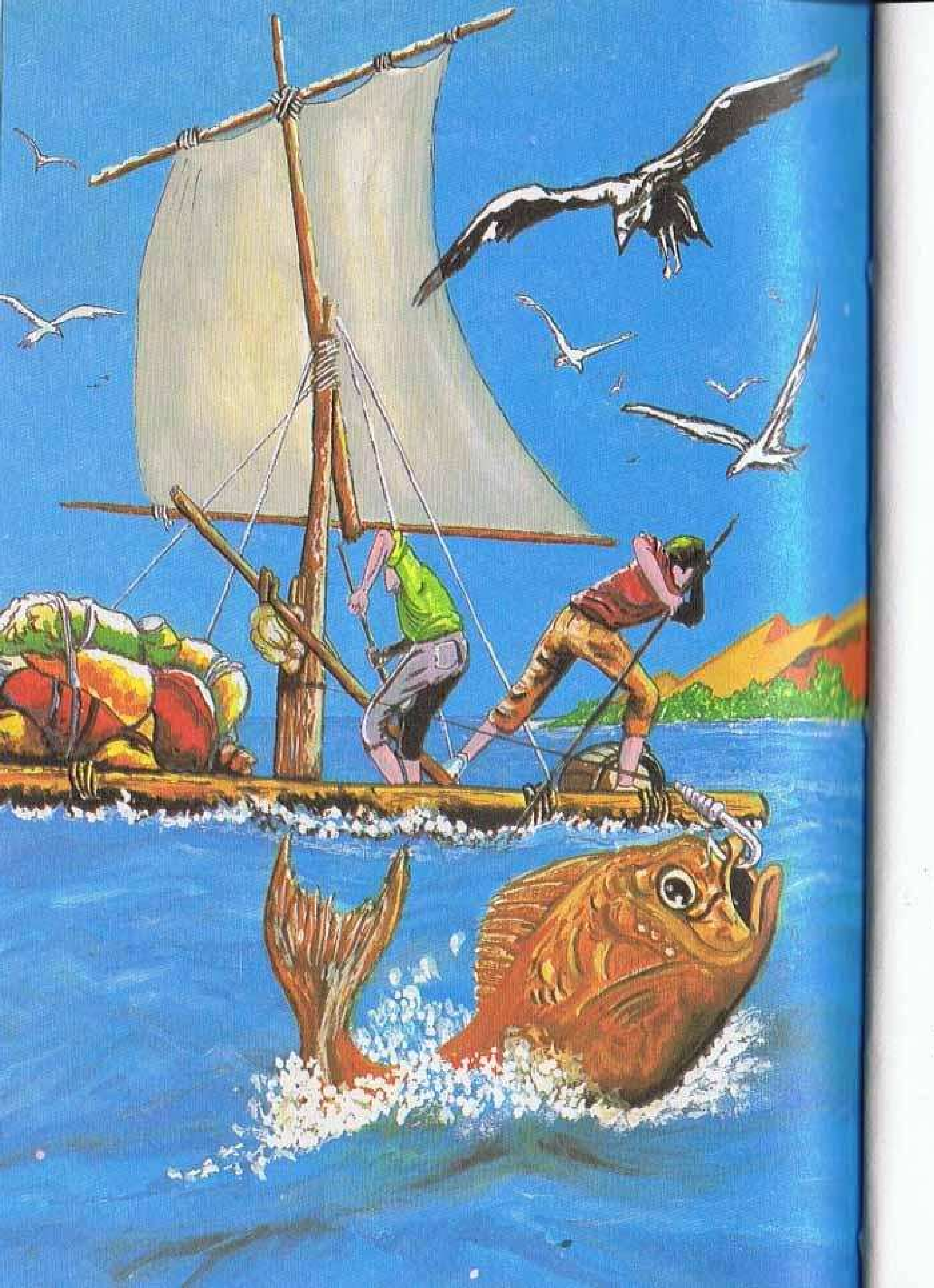
وَ وَجَدْنا بَعْضَ الشِّباكِ أيْضًا . لَمْ تَكُنْ كَبيرَةً ، لكِنَّني قُلْتُ : « يُمْكِنُ أنْ نَخيطَها مَعًا ، بِاسْتِخْدامِ ما لَدَيْنا مِنْ خَيْطٍ . هَيّا نَبْحَثْ عَنْ أدواتٍ أخْرى لِنَأخُذَها مَعَنا .»

وَجَمَعْنا كُلَّ الأدَواتِ الَّتي أمْكَنَنا العُثورُ عَلَيْها .

قُلْتُ لِفرِتْز : « هَلْ تَذْكُرُ أنَّ السَّيِّدَ وِيلْكِنْز قالَ إنَّهُ قَدْ أحْضَرَ مَعَهُ مِحْراثًا خَفيفًا ؟ هَلْ نَأخُذُ ذَلِكَ المِحْراثَ إلى الجَزيرَةِ ؟»

قالَ فرِتْز : « لا أعْتَقِدُ أنَّ الحِمارَ يَسْتَطيعُ أنْ يَجُرَّ مِحْراثًا ؛ فَكَيْفَ نَجُرُّهُ نَحْنُ ؟»

أجَبْتُ : « حَقًا ، لا أظُنُّ أنَّ الحِمارَ يُمْكِنُ أنْ يَجُرَّهُ ، كَذَلِكَ لا أعْتَقِدُ أنَّ البَقَرَةَ وَالحِمارَ يُمْكِنُ أنْ يَتَعاوَنا مَعًا في العَمَلِ . لَكِنَّ المِحْراثَ لَيْسَ ثَقيلاً أوْ كَبيرًا جِدًّا . لِنَأخُذْهُ ، وَسَيَأتي اليَوْمُ الَّذي نَشْعُرُ فيهِ بِالسَّعادَةِ لأنَّنا أخَذْناهُ مَعَنا .»



وَنمنا تِلْكَ اللَّيْلَةَ على السَّفينَةِ . وَانْتَظَرْنا حَتّى مُنْتَصَفِ نَهارِ اليَوْمِ التّالي ، عِنْدَما أَصْبَحَتْ حرارَةُ الشَّمْسِ شَديدَةً ، وَبَدأَ الهَواءُ يَهُبُّ مِنَ البَحْرِ إلى البَرِّ .

وَنظَرْتُ إلى السَّماءِ ، فَرَأَيْتُ أَنَّنا قَدْ نُواجِهُ رِياحًا أَشَدَّ مِمّا نَحْتاجُ إلَيْها ؛ لأَنَّ مَنْظَرَ السَّماءِ كانَ يُنْذِرُ بِاقْتِرابِ عاصِفَةٍ . وَرَفَعْنا شِراعًا مَتينًا عَلى قارِبِنا ، وَبَدَأْنا الإبْحارَ .

في بِدايَةِ الرِّحْلَةِ ، كانَ الهَواءُ ضَعيفًا ، وَتَحَرَّكَ القارِبُ بِبُطْءٍ شَديدٍ .

قالَ فِرِتْز : « أَظُنُّ أَنَّهُ يُمكِنُ صَيْدُ سَمَكَةٍ وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى الشّاطِئِ . »

وَأَنْزَلْنا إلى الماءِ خَيْطَ صَيْدٍ مِنْ فَوْقِ حافَةِ القارِبِ ، وَظَلِلْنا نَجُرُّهُ خَلْفَنا في الماءِ أَثْناءَ إبْحارِنا . وَفَجْأَةً شَعَرْنا بِشَيْءٍ يَجْذِبُ خَيْطَ الصَّيْدِ جَذْبًا شَديدًا . وَلِحُسْنِ الحَظِّ كُنّا قَدِ اسْتَخْدَمْنا أَقْوى خَيْطِ صَيْدٍ لَدَيْنا ، وَكانَ الشَّيْءُ الَّذي يَجْذِبُنا مِنَ القُوَّةِ بِحَيْثُ جَعَلَ القارِبَ يَتَراجَعُ إلى الخَلْفِ .

صاحَ فِرِتْز : « إنَّ السَّمَكَةَ تَجْذِبُنا إلى عُرْضِ البَحْرِ ! سَتَذْهَبُ بِنا بَعيدًا ! »

قُلْتُ : « لا بُدَّ أنْ نَقْطَعَ خيطَ الصَّيْدِ .»

قالَ فِرِتْز : « لا ، لا ، دَعْنا نَنْتَظِرْ .»

وَأمْسَكْنا بِالمَجاديفِ ، وَأخَذْنا نُجَدِّفُ بِكُلِّ ما أوتينا مِنْ قُوَّةٍ ، لكِنْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ إلا ريحٌ ضَعيفَةٌ جدًّا تُساعِدُنا . وَ وَجَدْنا الشَّيْءَ الَّذي في الشِّصِّ يَجْذِبُ القارِبَ إلى أبْعَدَ فَأبْعَدَ داخِلَ البَحْرِ .

قُلْتُ : « أتَمَنّى أنْ تَهُبَّ الرِّيحُ .»

وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِـهـا ، بَدَأَتِ الرِّيحُ تَهُبُّ ، وَانْدَفَعَ القارِبُ في اتِّجاهِ الشّاطِئِ . وَاشْتَدَّ هُبوبُ الرِّيحِ ، حَتّى ظَنَنْتُ أنَّ الشِّراعَ قَدْ يَطيرُ بَعيداً ، وَظَلِلْنا نَتَحَرَّكُ فَوْقَ الماءِ بِسُرْعَةٍ تَتَزايَدُ في كُلِّ لَحْظَةٍ . وَأخيراً ألْقَتِ الأمْواجُ بِالقارِبِ فَوْقَ الشّاطِئِ بِقُوَّةٍ شَديدَةٍ ، حَوَّلَتْهُ إلى قِطَعٍ مُبَعْثَرَةٍ !

وَكانَتْ زَوْجَتي مَعَ بَقِيَّةِ الأوْلادِ يَنْتَظِرونَنا وَمَعَهُمُ الزَّحّافَةُ . وَبِسُرْعَةٍ نَقَلْنا حَوائِجَنا مِنَ القارِبِ ، وَ وَضَعْناها عَلى الزَّحّافَةِ .

قُلْتُ : « أخيراً ، نَقَلْنا كُلَّ شَيْءٍ .»

أجابَ فِرِتْز : « لا ، لا ، دَعونا نَرَ ما إذا كانَتِ السَّمَكَةُ لا تَزالُ مَعَنا .»

وَنَزَلَ إلى الماءِ ، ثُمَّ قالَ : « نَعَمْ ، إنَّها لا تَزالُ هُنا . لَقَدْ تَوَقَّفَتْ حَرَكَتُها .» وَاسْتَطَعْنا بِمَشَقَّةٍ أنْ نَجُرَّ السَّمَكَةَ الكَبيرَةَ إلى الأرْضِ ، وَأنْ نَضَعَها فَوْقَ الزَّحّافَةِ .

قُلْتُ : « سَتُوَفِّرُ لَنا هذِهِ السَّمَكَةُ الطَّعامَ لأيّامٍ عَديدَةٍ ، إذا لَمْ تَفْسُدْ . لا بُدَّ أنْ نَضَعَ جُزْءاً مِنْها في المِلْحِ لِحِفْظِهِ .»

قالَ إرْنِسْت : « لكِنَّنا أصْبَحْنا الآنَ بِغَيْرِ قارِبٍ ، ماذا نَفْعَلُ ؟»

قُلْتُ : « سَنَأْخُذُ البَراميلَ الَّتي اسْتَخْدَمْناها لِصُنْعِ القارِبِ ، وَسَتُفيدُنا في حِفْظِ الطَّعامِ وَالأشْياءِ الأخْرى . وَعَلَيْكَ ، يا إرْنِسْت ، أنْ تَسيرَ بِمُحاذاةِ الشّاطِئِ ، بَعْدَ المَكانِ الَّذي ألْقَتِ الأمْواجُ بِالأخْشابِ عَلَيْهِ . أظُنُّ أنَّ الأمْواجَ يُمْكِنُ أنْ تَكونَ قَدْ ألْقَتْ بِأحَدِ زَوارِقِ السَّفينَةِ هُناكَ .»

وَكانَ هُناكَ زَوْرَقٌ فِعْلاً ، لكِنَّهُ كانَ شِبْهَ مُحَطَّمٍ ، وَمَعَ ذلِكَ اسْتَطَعْنا تَرْميمَهُ . وَهكَذا أصْبَحَ لَدَيْنا زَوْرَقٌ أصْغَرُ ، لكِنَّهُ أفْضَلُ مِنَ الَّذي صَنَعْناهُ بِأنْفُسِنا . وَتَناوَلْنا عَشاءَنا بِجُزْءٍ مِنَ السَّمَكَةِ وَكانَ مَذاقُها طَيِّبًا جدًّا . وَاحْتَفَظَتْ زَوْجَتي بِجُزْءٍ مِنْها لِطَعامِنا في اليَوْمِ التّالي ، وَ وَضَعَتِ الباقيَ في المِلْحِ ، وَحَفِظَتْهُ في بِرْميلٍ .

بَعْدَ أنْ تناوَلْنا طَعامَ العَشاءِ ، جلَسْنا حَوْلَ النارِ نَتحدَّثُ عَنِ الأشْياءِ الّتي يَجِبُ أنْ نَقومَ بِها خِلالَ الأيّامِ المُقْبِلَةِ .

قالَتْ زَوْجَتي : « يَجِبُ أنْ نُقيمَ كوخًا نَضَعُ فيهِ الأدواتِ وَالأشياءَ الأخْرى كَبيرَةَ الحَجْمِ . إنَّنا لا نَسْتَطيعُ أنْ نَحْمِلَ هَذِهِ المَجارِفَ كُلَّما صَعِدْنا إلى المَنْزِلِ أوْ هَبَطْنا مِنْهُ .»

قُلْتُ : « حَقا ، وَيَجِبُ أيضًا أنْ نُقيمَ بَعْضَ الحَظائِرِ لِلْحَيَواناتِ ، كَما يَجِبُ أنْ نُمَهِّدَ الأرْضَ لِزِراعَةِ حَديقَةٍ .»

قالَ فرِتْز : « يَجِبُ أنْ تَكونَ حَديقَةً كَبيرَةً ؛ فَإنَّ لَدَيْنا بُذورًا كَثيرَةً : قَمْحٌ أحْضَرْناهُ مِنَ السَّفينَةِ ، وَبَطاطِسُ ، وَبُقولٌ ، كَما أنَّهُ يُمْكِنُ العُثورُ عَلى نَباتاتٍ أخْرى فَوْقَ الجَزيرَةِ ، يُمْكِنُ أنْ نَزْرَعَها في الحَديقَةِ .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، لَكِنْ هُناكَ ما هُوَ أكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ؛ لا بُدَّ أنْ نُقيمَ سورًا حَوْلَ الحَديقَةِ ، وَإلا فَإنَّ الحَيَواناتِ سَتَدْخُلُها ، وَتأكُلُ النَّباتاتِ فَوْرَ أنْ تَنْبُتَ فَوْقَ سَطْحِ الأرْضِ .»

قالَ إرْنِسْت ، الَّذي كانَ كَسولاً بِطَبْعِهِ وَلا يُحِبُّ العَمَلَ : « لَكِنَّ هَذِهِ أعْمالٌ كَثيرَةٌ جِدًّا !»

قالَتْ زَوْجَتي : « لَكِنْ ثَمَّ مَوْضوعٌ لَمْ أسْمَعْ عَنْهُ شَيْئًا مِنْكُمْ . لَقَدْ أخْبَرْتُموني بِكُلِّ الأشْياءِ الَّتي يُمْكِنُ أنْ نَأكُلَها في العامِ القادِمِ ، لَكِنَّكُمْ لَمْ تَقولوا لي شَيْئًا عَمّا سَنَأكُلُهُ الآنَ !»

قُلْتُ : « صَحيحٌ ، لَيْسَتْ لَدَيْنا الآنَ بَطاطِسُ لِلأكْلِ ، لَكِنْ يُمْكِنُ أنْ نَجِدَ نَباتاتٍ أخْرى تَنْمو بَرِّيًا ، تُشْبِهُ البَطاطِسَ تَقْريبًا في قيمَتِها . هُناكَ البَطاطا الحُلْوَةُ ، وَأنا مُوقِنٌ مِنْ وُجودِها فَوْقَ هَذِهِ الجَزيرَةِ .»

وَفي الصَّباحِ الباكِرِ مِنَ اليَوْمِ التّالي ، خَرَجْنا كُلُّنا لِلْبَحْثِ عَنْها .

قُلْتُ : « سَتَجِدونَ البَطاطا الحُلْوَةَ تَنْمو في التُّرْبَةِ الرَّمْلِيَّةِ ، كَما سَتَجِدونَها تَتَسَلَّقُ نَباتًا آخَرَ مِثْلَ شَجَرَةٍ صَغيرَةٍ أوْ بَعْضِ عيدانِ القَصَبِ ؛ فَإنَّها نَباتٌ مُتَسَلِّقٌ .»

اِنْقَضى بَعْضُ الوَقْتِ ، وَلَمْ يَعْثُرْ أحَدٌ مِنّا عَلى شَيْءٍ ، ثُمَّ عَثَرَ فرِتْز عَلى نَباتٍ ، وَناداني قائِلاً : « هَلْ هَذِهِ هيَ البَطاطا الحُلْوَةُ ؟»

قُلْتُ : « رُبَّما تَكونُ هيَ . اِحْفِرِ الأرْضَ وَحاوِلْ أنْ تَصِلَ إلى الجِذْرِ .»

وَبَدَأَ فرِتز الحَفْرَ ، ثُمَّ ناداني إرْنِسْت قائِلاً : « ها هُنا نَباتٌ ، فَهَلْ هُوَ ما نَبْحَثُ عَنْهُ ؟ »

قُلْتُ : « قَدْ تَكونُ البَطاطا الحُلْوَةَ ، لكِنْ لا بُدَّ أَنْ تَبْدَأَ أَنْتَ أَيْضاً في الحَفْرِ ؛ لِنَرى ما إذا كُنْتَ تَسْتَطيعُ العُثورَ عَلى الجِذْرِ . إنَّ لَوْنَهُ أَزْرَقُ أَوْ أَحْمَرُ قاتِمٌ ، وَقَدْ يَكونُ حَجْمُهُ كَبيراً ، أَكْبَرَ مِنْ حَجْمِ كُرَةِ القَدَمِ ! »

وَكانَ فرِتز لا يَزالُ يَحْفِرُ . لَقَدْ حَفَرَ إلى عُمْقِ نِصْفِ مِتْرٍ ، ثُمَّ قالَ : « لَقَدْ حَفَرْتُ نِصْفَ مِتْرٍ ، لكِنَّني لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ أَيَّ جِذْرٍ بَعْدُ . »

قُلْتُ : « في بَعْضِ الأَحْيانِ يَكونُ الجِذْرُ عَلى عُمْقِ مِتْرٍ . اسْتَمِرَّ في الحَفْرِ . »

أَمّا إرْنِسْت ، فَقَدْ وَجَدَ الجِذْرَ عَلى عُمْقِ نِصْفِ مِتْرٍ تَقْريبًا ، فَشَعَرَ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ . وَبَعْدَهُ مُباشَرَةً وَجَدَ فرِتز جِذْرَهُ . كانَ الجِذْرانِ جِدَّ كَبيرَيْنِ ، فَحَفَرْنا حَتّى أَخْرَجْناهُما ، وَأَعْدَدْناهُما لِنَحْمِلَهُما إلى البَيْتِ ، ثُمَّ بَحَثْنا حَوْلَنا لَعَلَّنا نَجِدُ المَزيدَ ، وَقَدْ وَجَدْنا عَدَداً لا بَأْسَ بِهِ مِنْها .

قُلْتُ : « هَذا حَسَنٌ ، سَيَكونُ لَدَيْنا شَيْءٌ يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَخْدِمَهُ

بَدَلاً مِنَ البَطاطِسِ ، وَ نَصْنَعَ مِنْهُ نَوْعًا مِنَ الخُبْزِ . »

وَكانَ جاك قَدِ ابْتَعَدَ عَنّا ، ثُمَّ عادَ قائِلاً : « لَقَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ البَطاطِسِ – بَطاطِسَ حَقيقِيَّةٍ . »

قُلْتُ : « لا ، البَطاطِسُ لا تَنْمو بَرِّيًا . »

قالَ وَهُوَ يَعْرِضُ أَمامي بَعْضَ البَطاطِسِ الخَضْراءِ اللَّوْنِ : « لكِنِ انْظُروا إلى هَذِهِ . »

قُلْتُ : « إنَّها لَيْسَتِ البَطاطِسَ الَّتي تَعْرِفُها ، إنَّها نَوْعٌ آخَرُ مِنَ البَطاطا الحُلْوَةِ . إنَّ لَها قِشْرَةً خَضْراءَ ، وَهِيَ صالِحَةٌ تَمامًا لِلأَكْلِ . يَجِبُ أَنْ نَعْثُرَ عَلى أَكْبَرِ كَمِّيَّةٍ مِنْها ؛ لِكَيْ نَزْرَعَها في حَديقَتِنا . كَما نَسْتَطيعُ اسْتِخْدامَ بَعْضِها في الوَقْتِ الحالِيِّ ، إلى أَنْ نَجِدَ غَيْرَها . وَالآنَ هَيّا لِكَيْ نَعودَ إلى المَنْزِلِ . »

وَهَكَذا عُدْنا إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ .

قُلْتُ : « عَلَيْنا أَنْ نَبْدَأَ بِتَقْطيعِ البَطاطا الحُلْوَةِ إلى قِطَعٍ صَغيرَةٍ وَغَسْلِها بِعِنايَةٍ شَديدَةٍ ؛ لأَنَّ مَذاقَ عُصارَتِها سَيِّئٌ جِدًّا وَشَديدُ الخُطورَةِ أَيْضًا . يَجِبُ أَنْ نَغْسِلَها ، إلى أَنْ نُطَهِّرَها تَمامًا مِنَ المَذاقِ السَّيِّئِ قَبْلَ طَهْيِها . »

وَقامَتْ زَوْجَتي بِطَهْيِ البَطاطا الحُلْوَةِ . وَكانَ مَذاقُها يُشْبِهُ البَطاطِسَ كَثيراً ، لَكِنَّها لَمْ تَكُنْ في مِثْلِ جَوْدَتِها . كَما أَخَذَتْ بَعْضَها ، وَصَنَعَتْ مِنْهُ نَوْعًا مِنَ الخُبْزِ ، كانَ صُلْبًا ، لَكِنَّنا وَجَدْناهُ مَقْبولاً . وَ حَلَّ المَساءُ ، فَوَجَدْنا لَدَيْنا خُبْزَ البَطاطا الحُلْوَةِ وَبَعْضَ السَّمَكِ لِعَشائِنا .

قُلْتُ : « عِنْدَما نَقومُ بِإِعْدادِ الحَديقَةِ لِلزِّراعَةِ ، يَجِبُ أَنْ نُحْضِرَ كَثيراً مِنْ الخَيْزُرانِ ؛ فَلا بُدَّ أَنْ نَصْنَعَ مِنْهُ سوراً حَوْلَ الحَديقَةِ . كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نُقيمَ حَظائِرَ لِلْحَيَواناتِ .»

قالَ إِرْنِسْت : « لَنْ نَحْتاجَ إِلى حَظائِرَ كَثيرَةٍ ، فَلَيْسَ لَدَيْنا إلا الحِمارُ وَالبَقَرَةُ وَ المَعْزُ ، وَهَذِهِ تَحْتاجُ إِلى أَرْبَعَةِ حَظائِرَ صَغيرَةٍ .»

قُلْتُ : « لَكِنَّكَ سَرْعانَ ما سَتَجِدُ لَدَيْكَ عَدَداً مِنَ الحَيَواناتِ أَكْبَرَ بِكَثيرٍ مِنْ هَذا .»

وَكُنْتُ مُصيباً في قَوْلي .

الفصل الثاني عشر

إعْدادُ الحديقةِ لِلزِّراعَةِ

اِسْتَيْقَظْنا في الصَّباحِ مُبَكِّرينَ لِنَبْدَأَ فِلاحَةَ حَديقَتِنا ، وَالجَوُّ لا يَزالُ بارِداً . وَأَخَذْتُ أَنا وَفرِتْز وَجاك المَجارِفَ ، وَأَخَذَ فرانْسيس الشَّوْكَةَ ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في سِنٍّ تَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يُقَدِّمَ لَنا مَعونَةً كَبيرَةً .

وَانْهَمَكْنا كُلُّنا في العَمَلِ نُقَلِّبُ الأَرْضَ . وَبَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ ، عِنْدَما شَعَرْنا بِالتَّعَبِ ، قُلْتُ : « هَيّا نَذْهَبْ لِجَمْعِ فَضَلاتِ الحَيَواناتِ مِنَ الأَماكِنِ الَّتي قَيَّدْناها فيها أَثْناءَ اللَّيْلِ . سَنَأْتي بِهَذِهِ الفَضَلاتِ إِلى الحَديقَةِ ، لِتَكونَ سَماداً .»

وَعُدْنا إِلى تَقْليبِ الأَرْضِ مَرَّةً أُخْرى ، مُسْتَفيدينَ بِبُرودَةِ المَساءِ. وَ جَلَسْنا لِلْعَشاءِ مُرْهَقينَ لِلْغايَةِ ، وَ تَناوَلْنا السَّمَكَ و البَطاطا

الحُلْوَةَ .

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ نُواصِلَ غَـداً تَقْليبَ الأرْضِ ، ثُمَّ نَذْهَبَ لِقَطْعِ كَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنْ الخَيْزُرانِ ، وَإحْضارِها هُنا لإقامَةِ سورٍ حَوْلَ حَديقَتِنا ، وَلِبِناءِ حَظائِرَ لِحَيَواناتِنا .»

سَألَ جاك : « هَلْ يَجِبُ أنْ نُقيمَ حَظيرَةً كَبيرَةً لِلْبَقَرَةِ ؟»

أجَبْتُ : « لا ، فَسَتَكونُ فيها بِمُفْرَدِها . وَالآنَ عَلَيْكُمْ أنْ تَذْهَبوا إلى الفِراشِ ؛ لِتَكونوا غَداً مُسْتَعِدّينَ لِتَقْليبِ الأرْضِ بِكُلِّ هِمَّةٍ ، وَبَعْدَ غَدٍ سَنَذْهَبُ لإحْضارِ الخَيْزُرانِ .»

سَألَ جاك : « كَيْفَ سَنَتَمَكَّنُ مِنْ نَقْلِ كَمِّيَّةِ الخَيْزُرانِ الكَبيرَةِ هَذِهِ المَسافَةَ الطَّويلَةَ ؟ هَلْ يَسْتَطيعُ الحِمارُ أنْ يَجُرَّ كَمِّيَّةً كَبيرَةً مِنَ الخَيْزُرانِ ؟»

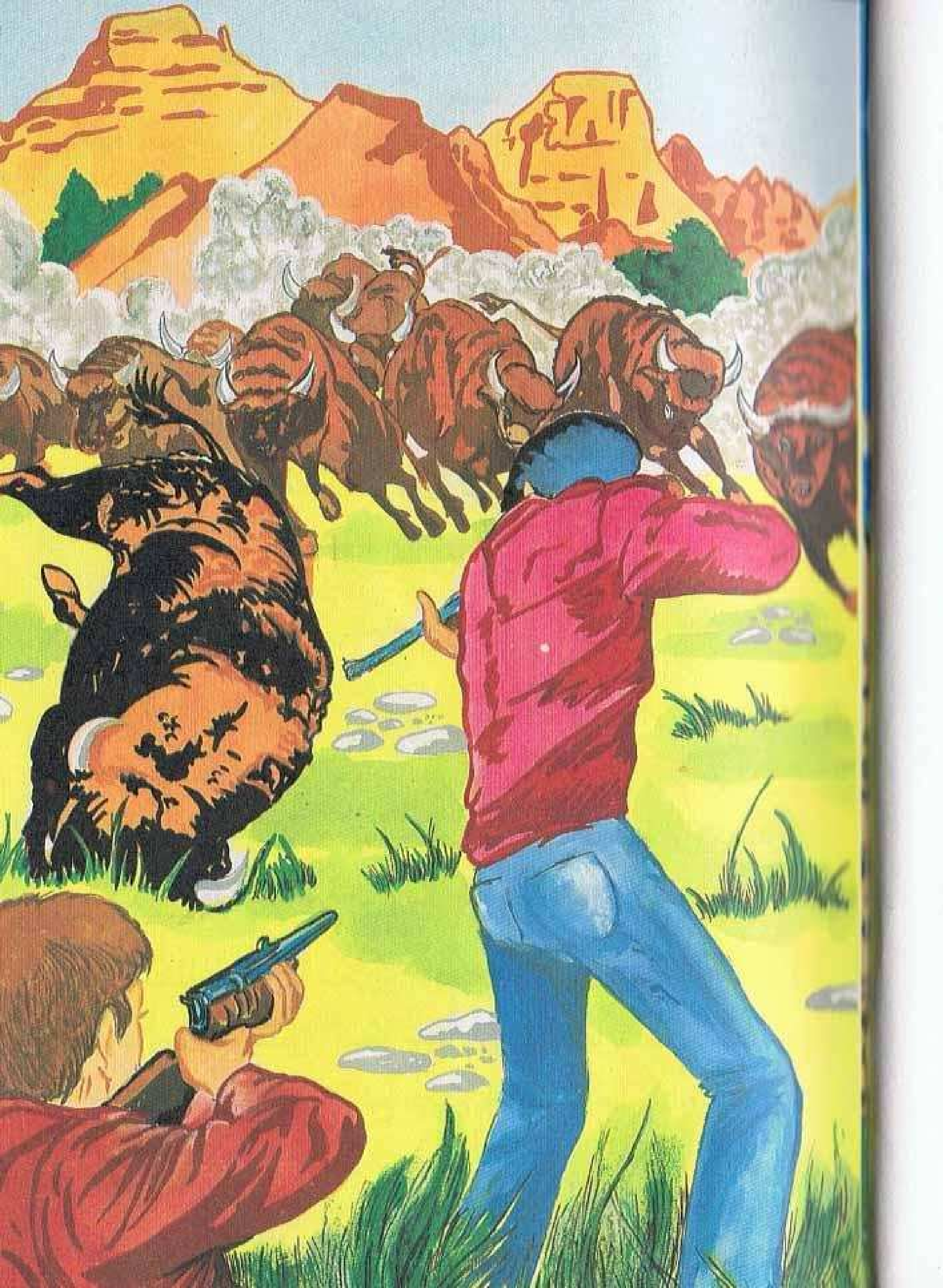
قُلْتُ : « لا ، لَنْ نَذْهَبَ إلى المَكانِ الَّذي أحْضَرْنا مِنْهُ الخَيْزُرانَ في المَرَّةِ السّابِقَةِ . سَنَذْهَبُ إلى مَكانٍ آخَرَ ، وَسَنَهْتَدي إلى وَسيلَةٍ أفْضَلَ كَثيراً لِنَقْلِ الخَيْزُرانِ إلى جِوارِ مَنْزِلِنا فَوْقَ الشَّجَرَةِ .»

قالَ جاك : « هَلْ ثَمَّ شَيْءٌ أفْضَلُ مِنَ الحِمارِ لِجَرِّ الخَيْزُرانِ ؟»

قُلْتُ : « نَعَمْ ، ثَمَّةَ وَسيلَةٌ أفْضَلُ كَثيراً ؛ سَنَسْتَخْدِمُ النَّهْرَ ،

سَنَقْطَعُ الخَيْزُرانَ ، ثُمَّ نَسْحَبُهُ إلى ماءِ النَّهْرِ ، وَسَيَحْمِلُهُ النَّهْرُ إلى قُرْبِ مَنْزِلِنا فَوْقَ الشَّجَرَةِ .»

قالَ جاك : « حَقا ، سَتَكونُ هَذِهِ أفْضَلَ طَريقَةٍ .»



الفصل الرابع عشر

الجاموسُ

إِنْطَلَقْنا في طَريقِنا لِنُحْضِرَ الخَيْزُرانَ ، لإقامَةِ سورٍ لِحَديقَتِنا ، وَحظائِرَ لِحَيَواناتِنا . وَجاءَتْ مَعي زَوْجَتي وَالأَوْلادُ ، كَما جاءَ الكَلْبانِ طِرْك وَفلورا ، كَذلِكَ أَخَذْنا الحِمارَ لِيَجُرَّ الخَيْزُرانَ إلى شاطِئِ النَّهْرِ . وَلأَنَّنا كُنّا ذاهِبينَ إلى مِنْطَقَةٍ لَمْ يَسْبِقْ أَنْ ذَهَبْنا إلَيْها ، فَقَدْ أَخَذْنا مَعَنا بَنادِقَنا . وَكانَ اصْطِحابُ الكَلْبَيْنِ أَمْراً غَيْرَ مُوَفَّقٍ ، في حينَ حالَفَنا التَّوْفيقُ في حَمْلِ بَنادِقِنا مَعَنا .

وَصَعِدْنا مَعَ مَجْرى النَّهْرِ ، فَوَجَدْنا كَثيراً مِنَ الخَيْزُرانِ ، فَقَطَعْناهُ ، وَرَبَطْناهُ مَعاً ، وَقامَ الحِمارُ بِجَرِّهِ إلى شاطِئِ النَّهْرِ ، اسْتِعْداداً لِيَحْمِلَهُ تَيّارُ النَّهْرِ مَعَهُ وَهُوَ في طَريقِهِ إلى البَحْرِ ، ثُمَّ تَناوَلْنا الطَّعامَ ، وَاسْتَرَحْنا .

وَانْصَرَفَ جاك ، ثُمَّ عادَ بَعْدَ قَليلٍ قائِلاً : « أَبي ، لَقَدْ رَأَيْتُ

عَدداً كَبيراً مِنَ الأفْيالِ ، فَعلى مَقْرَبَةٍ مِنّا مَكانٌ لَيْسَتْ بِهِ أشْجارٌ ، رَأيْتُ بِهِ عَشَرَةَ أفْيالٍ أوْ خَمْسَةَ عَشَرَ .»

قُلْتُ : « جاك ، يَجِبُ أنْ تَكُفَّ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ السَّخافاتِ ؛ فَلَيْسَ ثَمَّةَ أفْيالٌ في هَذِهِ المِنْطَقَةِ . توجَدُ الأفْيالُ فَقَطْ في الهِنْدِ أوْ أفْريقيا ، لَكِنْ لا تُوْجَدُ أفْيالٌ هُنا .»

قالَ : « لَكِنْ هُنا أفْيالٌ ! تَعالَ لِتَرى .»

و ذَهَبْنا كُلُّنا لِنَرى أفْيالَ جاك . وَعِنْدَما خَرَجْنا مِنْ بَيْنِ الأشْجارِ ، رَأيْتُ قَطيعاً مِنَ الجاموسِ .

وَظَلِلْنا نَقْتَرِبُ حَتّى أصْبَحَ بَيْنَنا وَبَيْنَ الجاموسِ حَوالى أرْبَعينَ مِتْراً . كانَتْ تَقِفُ في مَكانِها تَنْظُرُ إلَيْنا ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَها قَطُّ أنْ شاهَدَتْ إنْساناً . لَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ عَلَيْها أنَّها غاضِبَةٌ أوْ خائِفَةٌ ، بَلْ كانَتْ تَقِفُ ساكِنَةً هُناكَ ، تَنْظُرُ إلَيْنا بِعُيونِها الكَبيرَةِ المُسْتَديرَةِ .

وَاسْتَطَعْتُ أنْ أرى صَغيرَيْنِ وَسْطَ القَطيعِ ، ثُمَّ بَدَأ طِرْك وَفلورا يَتَواثَبانِ ، وَهُما يُصْدِرانِ ضَجَّةً عالِيَةً ، وَبِسَبَبِها ظَهَرَ الغَضَبُ الشَّديدُ عَلى الجاموسِ ، وَبَدَأ القَطيعُ يَتَقَدَّمُ ناحِيَتَنا ، وَأصْبَحْنا في خَطَرٍ

شَديدٍ . وَانْدَفَعَ الكَلْبانِ يُحاوِلانِ دَفْعَ الجاموسَتَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ ناحِيَتَنا ، لَكِنَّ بَقِيَّةَ القَطيعِ ظَلَّ يَتَقَدَّمُ نَحْوَنا .

عِنْدَئِذٍ قُمْتُ أنا وَفرِتْز بِإطْلاقِ الرَّصاصِ ، فَسَقَطَتْ جاموسَةٌ قَتَلَتْها الطَّلَقاتُ ، وَاسْتَدارَتِ البَقِيَّةُ وَابْتَعَدَتْ ، وَلَعَلَّها لَمْ تَسْمَعْ مِنْ قَبْلُ صَوْتَ إطْلاقِ رَصاصٍ . وَالحَقيقَةُ أنَّهُ كانَ مِنَ الصَّعْبِ أنْ يُراوِدَني أيُّ أمَلٍ في إمْكانِ النَّجاةِ مِنْ ذَلِكَ الخَطَرِ بِمِثْلِ تِلْكَ السُّهولَةِ .

قُلْتُ لِفرِتْز وَإرْنِسْت : « هَيّا نُمْسِكْ بِهاتَيْنِ الجاموسَتَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ . يَجِبُ أنْ نَأخُذَهُما مَعَنا .»

وَتَقَدَّمْنا ، وَرَبَطْنا حِبالاً حَوْلَ عُنُقَيْهِما ، فَسَمَحَتا لَنا أنْ نَقودَهُما بِسُهولَةٍ تامَّةٍ ، ثُمَّ أسْرَعْنا نَبْتَعِدُ بِأقْصى سُرْعَةٍ سَمَحَتْ لَنا بِها حَرَكَةُ الحَيَوانَيْنِ ، وَاخْتَفَيْنا وَسْطَ الأشْجارِ .

قُلْتُ : « أمّا الآنَ ، فَسَنَتْرُكُ الخَيْزُرانَ إلى الغَدِ . سَنَأتي غَداً وَنَأخُذُهُ ، لَكِنْ يَجِبُ أنْ نَأخُذَ الجاموسَتَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ مَعَنا . إنَّ لَهُما فائِدَةً كَبيرَةً ، وَسَنُرْضِعُهُما مِنْ لَبَنِ البَقَرَةِ .»

وَقَدْ سَمَحَتِ البَقَرَةُ لِلْجاموسَتَيْنِ الصَّغيرَتَيْنِ بِأنْ تَرْضَعا مِنْها .

قالَ جاك : « لكِنْ ، على هَذا النَّحْوِ لَنْ يَبْقى لنا لَبَنٌ ! »

قُلْتُ : « بَلْ سَيَبْقى لنا لَبَنُ المَعْزِ ، أمّا هاتانِ الجاموسَتانِ ، فَإنَّ لَهُما أهمِيَّةً كَبيرَةً . »

قالَ إرْنسْت : « يَبْدو عَلَيْكَ السُّرورُ الشَّديدُ لِحُصولِنا عَلَيْهِما . »

أجَبْتُ : « حَقا ، أنا سَعيدٌ جدًّا ؛ فَقَدْ وَجَدْتُ الآنَ حَلا لِمَسْألَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ . »

قالَ إرْنسْت : « ما هُما ؟ »

أجَبْتُ : « عِنْدَما تَتَوَقَّفُ البَقَرَةُ عَنْ إعْطائِنا مَزيداً مِنَ اللَّبَنِ ، فَإنَّ هَذا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ نِهايَةَ ما لَدَيْنا مِنْ لَبَنٍ ، ولَكِنْ هاتانِ الجاموسَتانِ سَتَكْبَرانِ وَسَيَكونُ لَهُما صِغارٌ ، وَبِذَلِكَ سَيَظَلُّ اللَّبَنُ مُتَوَفِّرًا لَدَيْنا ما دُمْنا في حاجَةٍ إلَيْهِ ، كَما سَتَكونُ لَدَيْنا أعْدادٌ مُتَزايِدَةٌ مِنَ الجاموسِ . إنَّ لَبَنَ الجاموسِ جِدُّ مُمْتازٍ ؛ فَهُوَ غَنِيٌّ بِالقِشْدَةِ ، وَيُمْكِنُ أنْ نَصْنَعَ مِنْهُ الزُّبْدَ . »

سَألَ فرِتْز : « وَما هِيَ المَسْألَةُ الثّانِيَةُ ؟ »

أجَبْتُ : « لَعَلَّكَ تَذْكُرُ المِحْراثَ الَّذي أحْضَرْناهُ مِنَ السَّفينَةِ ، وَالَّذي قُلْتَ إنَّني لا أدْري ما الَّذي يُمْكِنُ أنْ يَجُرَّهُ . إنَّ الجاموسَ

قَوِيٌّ جدًّا ، وَيُمْكِنُ أنْ يَجُرَّ لَنا المِحْراثَ . وَهَكَذا أصْبَحَ لَدَيْنا الآنَ مِحْراثٌ ، كَما ضَمِنّا اسْتِمْرارَ الحُصولِ عَلى اللَّبَنِ . »

قالَ إرْنسْت : « لَيْسَ الآنَ . »

أجَبْتُ : « حَقا ، لَيْسَ الآنَ ، لَكِنْ في العامِ القادِمِ . يَجِبُ ألا نُفَكِّرَ في اليَوْمِ فَقَطْ ، بَلْ أنْ نُفَكِّرَ في الأعْوامِ القادِمَةِ أيْضًا ، حَتَّى وَ لَوْ كانَتْ حَياتُنا في الوَقْتِ الحاضِرِ حافِلَةً بِالمَشَقّاتِ . »

في اليَوْمِ التّالي ، عُدْنا وَقُمْنا بِتَقْطيعِ لَحْمِ الجاموسَةِ الَّتي اصْطَدْناها بِرَصاصِنا ، وَأحْضَرْنا مَعَنا كَمِّيَّةً كَبيرَةً مِنْ لَحْمِها ، وَضَعْناها في البَراميلِ مَعَ المِلْحِ ؛ لِكَيْ تُوَفِّرَ لَنا طَعامًا في فَصْلِ الشِّتاءِ ، كَما قُمْنا بِوَضْعِ الخَيْزُرانِ في النَّهْرِ ، فَحَمَلَهُ تَيّارُ الماءِ إلى مَكانٍ قَريبٍ مِنْ بَيْتِ الشَّجَرَةِ .

وَمِنْ هُناكَ ، سَحَبْناها إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ ، وَجَلَسْنا نَصْنَعُ مِنْها سوراً لِلْحَديقَةِ . وَبَعْدَ بِضْعَةِ أيّامٍ ، عِنْدَما انْتَهَيْنا مِنْ هَذِهِ المُهِمَّةِ ، قُلْتُ : « وَالآنَ ، يَجِبُ أنْ نَبْدَأ في إقامَةِ حَظائِرَ لِلْحَيَواناتِ . »

قالَ إرْنسْت : « سَنَحْتاجُ إلى ثَلاثِ حَظائِرَ فَقَطْ . »

قُلْتُ : « لِماذا ثَلاثٌ فَقَطْ ؟ »

قالَ إرْنسْت : « نَعَمْ ، نَحْنُ في حـاجَةٍ إلى مَكانٍ لِلْجاموسِ ، ومَكانٍ لِلْبَقَرَةِ ، ومَكانٍ لِلْمعَزِ ، ولَعلَّنا نُقيمُ بيْتاً وَفِناءً لِلدَّجاجِ .»

قُلْتُ : « وَلَكِنْ ماذا عَنِ الحِمارِ ؟»

قالَ إرْنسْت : « لَقَدْ هَرَبَ الحِمارُ .»

قُلْتُ : « هَرَبَ ؟»

قالَ : « نَعَمْ ، هَرَبَ . فَأنا لا أراهُ في أيِّ مَكانٍ حَوْلَنا .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، لكِنَّني أَتوَقَّعُ عَوْدَتَهُ ، أَتوَقَّعُ عَوْدَتَهُ عَنْ يَقينٍ . سَنُقيمُ بُيوتاً لَها كُلِّها ، وَلَنْ نَفْقِدَ الأَمَلَ .»

بَعْدَ عِدَّةِ أيامٍ ، كُنّا نَتناوَلُ الإفْطارَ ، عِنْدَما جاءَ فرانْسيس قائِلاً : « عِنْدي شَيْءٌ سَتَسُرُّكُمْ رُؤْيَتُهُ .» وكانَ ذَلِكَ صَحيحًا ، فَقَدْ وَجَدْنا فلورا وَمَعَها سِتَّةُ صِغارٍ . وَهَكَذا أَصْبَحَ عِنْدَنا ثَمانِيَةُ كِلابٍ .

قُلْتُ : « هَذا حَسَنٌ ، كُلُّ ما نَحْتاجُ إلَيْهِ الآنَ هُوَ العُثورُ عَلى حِمارِنا .»

وَذاتَ صَباحٍ ، أَثْناءَ انْهِماكِنا في زِراعَةِ البَطاطِسِ بِحَديقَتِنا ،

سَمِعْنا صَوْتاً غَريباً يَتَرامى إلَيْنا مِنْ بَعيدٍ .

قُلْتُ : « تُرى ما هَذا ؟ أَيُّ نَوْعٍ مِنَ الحَيَواناتِ يَصْدُرُ عَنْهُ هَذا الصَّوْتُ ؟»

وَقَدْ سَمِعَتِ الكِلابُ أَيْضاً ذَلِكَ الصَّوْتَ ، فَانْطَلَقَتْ مِنْها زَمْجَرَةُ الغَضَبِ ، وَظَهَرَ عَلَيْها التَّحَفُّزُ. وَفَتَّشْنا المِنْطَقَةَ المُحيطَةَ بِنا ، فَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرى أيَّ عَدُوٍّ ، لكِنَّ الأصْواتَ اسْتَمَرَّتْ ، وَأَخَذَتْ تَقْتَرِبُ وَتَقْتَرِبُ ، وَازْدادَتْ كِلابُنا قَلَقاً وَتَوَتُّراً ، فَاضْطُرِرْتُ إلى رَبْطِها .

قُلْتُ : « أَيُّ حَيَوانٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ هَذا ؟»

عِنْدَئِذٍ أَنْزَلَ فرِتْز بُنْدُقِيَّتَهُ ، وَبَدَأَ يَضْحَكُ ، وَقالَ : « أَسْتَطيعُ أَنْ أَراهُ . إنَّهُ لَيْسَ عَدُوّاً ، إنَّهُ حِمارُنا . لَقَدْ عادَ إلَيْنا .»

وَكانَ هَذا صَحيحاً . وَ اتَّضَحَ لَنا أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ وَحْدَهُ ، وَ إنَّما مَعَ حَيَوانٍ آخَرَ يُشْبِهُ الحِمارَ إلى حَدٍّ بَعيدٍ ، لكِنَّهُ أَصْغَرُ حَجْماً .

قُلْتُ : « إنَّها حِمارَةٌ وَحْشِيَّةٌ ، وَهِيَ جَميلَةُ الشَّكْلِ وَقَوِيَّةٌ جِدّاً . لا بُدَّ أَنْ نُحاوِلَ الإمْساكَ بِها .»

ثُمَّ قُلْتُ لِجاك وَإرْنسْت : « يَجِبُ أَلا يَصْدُرَ عَنّا أَيُّ صَوْتٍ . سَأُحاوِلُ أَنا وَفرِتْز أَنْ نُمْسِكَ بِها .»

وَتَقَدَّمَ فرتز نَحْوَ حِمارِنا ، وَهُوَ يُقَدِّمُ لَهُ بَعْضَ المِلْحِ في كَفِّهِ . وَكانَ حِمارُنا يُحِبُّ المِلْحَ ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَ فرتز ، وَتَقَدَّمَتِ الحِمارَةُ الوَحْشِيَّةُ مَسافَةً قَصيرَةً . وَعِنْدَما أَصْبَحَتْ قَرِيبَةً بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ ، جِئْتُ مِنْ خَلْفِها وَ وَضَعْتُ حَبْلاً حَوْلَ عُنُقِها . وَقَدْ قاوَمَتْنا ، لَكِنَّنا اسْتَطَعْنا أَخيراً أَنْ نُقَيِّدَها .

قُلْتُ : « لَعَلَّ الحِمارَةَ الوَحْشِيَّةَ تَلِدُ صِغاراً ، وَهَذا سَيَجْعَلُ مِنَ الأَسْهَلِ أَنْ نُرَوِّضَها لِتَكونَ نافِعَةً لَنا .»

وَكانَ ذَلِكَ ما حَدَثَ فِعْلاً .

وَكانَتِ الدَّجاجاتُ تَرْقُدُ فَوْقَ البَيْضِ ، وَسَرْعانَ ما أَصْبَحَ لَدَيْنا أَرْبَعونَ كَتْكوتاً . وَهَكَذا أَصْبَحَ لَدَيْنا عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الحَيَواناتِ ، يَجِبُ عَلَيْنا إِطْعامُهُ . لَقَدْ أَصْبَحَ لَدَيْنا البَقَرَةُ ، وَالحِمارُ ، وَالحِمارَةُ الوَحْشِيَّةُ ، وَ الجاموسَتانِ ، والمَعْزُ ، وَالكِلابُ ، وَالقِرْدُ .

قُلْتُ : « عَلَيْنا أَنْ نَعْمَلَ بِجِدٍّ حَتّى نُوَفِّرَ الطَّعامَ اللازِمَ لِكُلِّ هَذِهِ الحَيَواناتِ ، لأَنَّ مَوْسِمَ الأَمْطارِ قَدِ اقْتَرَبَ .»

وَكُنّا قَدْ أَحْضَرْنا الخَيْمَةَ مِنْ عَلى الشّاطِئِ ، فَمَلأناها بِالحَشائِشِ الجافَّةِ . وَجَمَعْنا كَمِّيّاتٍ مِنَ البَطاطا الحُلْوَةِ وَجَوْزِ الهِنْدِ ، وَ وَضَعْناها في مَكانٍ جافٍّ عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ .

الفصل الرابع عشر

الاسْتِعْدادُ لِلشِّتاءِ

وَ ظَهَرَتْ في السَّماءِ سُحُبٌ داكِنَةٌ ، وَهاجَ البَحْرُ ، وَتَحَطَّمَتِ البَقايا الأَخيرَةُ لِسَفينَتِنا ، وَاخْتَفَتْ بِفِعْلِ الأَمْواجِ .

قُلْتُ لِنَفْسي : « سَيَكونُ هُناكَ مَزيدٌ مِنَ الخَشَبِ عَلى الشّاطِئِ ، لَكِنَّ أَمْواجَ البَحْرِ سَتَرْتَفِعُ وَتَصِلُ إِلى المَكانِ الَّذي تَرَكْنا فيهِ القارِبَ .»

قُلْتُ : « هَيّا يا أَوْلادُ ، يَجِبُ أَنْ نَجُرَّ ذَلِكَ القارِبَ إِلى مَكانٍ أَكْثَرَ ارْتِفاعًا عَلى الشّاطِئِ ؛ حَتّى لا تَحْمِلَهُ أَمْواجُ العَواصِفِ إِلى عُرْضِ البَحْرِ ، كَما يَجِبُ أَنْ نَقْلِبَهُ لِكَيْ لا يَمْتَلِئَ بِالماءِ .»

وَ انْحَدَرْنا إِلى الشّاطِئِ ، وَسَحَبْنا القارِبَ إِلى مَكانٍ مُرْتَفِعٍ فَوْقَ رِمالِهِ ، وَقَلَبْناهُ . وَبَعْدَ أَنِ انْتَهَيْنا مِنْ ذَلِكَ ، أَشارَ إِرْنِسْت إِلى

شَيْءٍ ، وَقالَ : « ما هَذا الشَّيْءُ القابِعُ هُناكَ ؟ ذَلِكَ الشَّيْءُ المُرَبَّعُ ؟»

وَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ صُنْدوقًا قَدْ أَلْقَتْهُ المِياهُ عَلى الشّاطِئِ . كانَ مُغَطى كُلُّهُ تَقْريبًا بِالرِّمالِ . وَحَفَرْنا حَوْلَهُ حَتّى أَخْرَجْناهُ ، وَفَتَحْناهُ ، فَوَجَدْتُهُ مَمْلوءًا بِمَلابِسِ البَحّارَةِ . لَقَدْ كانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّنا أَنْ وَجَدْناهُ ، لكِنَّ المَلابِسَ أَصابَها البِلى إِلى حَدٍّ كَبيرٍ بِتَأْثيرِ ماءِ البَحْرِ .

قُلْتُ : « يُمْكِنُ أَنْ نَغْسِلَها مِنْ ماءِ البَحْرِ ، وَنُجَفِّفَها .»

قالَ جاك : « سَتَكونُ واسِعَةً جِدًّا عَلَيْنا . إِنَّها أَوْسَعُ مِنْ أَنْ تُناسِبَ فِرِتْز وَ إِرْنِسْت .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، إِنَّها واسِعَةٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لَكُمْ ، لكِنَّكُمْ سَتَكونونَ سُعَداءَ بِأَنْ تَسْتَخْدِموها إِذا ابْتَلَّتْ مَلابِسُكُمُ الأُخْرى تَحْتَ ماءِ المَطَرِ .»

قُلْتُ لِنَفْسي : « الشِّتاءُ يَقْتَرِبُ الآنَ ، فَما الَّذي نَحْتاجُ إِلَيْهِ ؟ سَنَحْتاجُ أَوَّلاً إِلى أَخْشابٍ تَصْلُحُ لِلْوَقودِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَسْتَخْدِمَها زَوْجَتي لِلطَّهْيِ أَسْفَلَ بَيْتِ الشَّجَرَةِ .» فَنَحْنُ لَمْ نَكُنْ نَطْهو طَعامَنا داخِلَ بَيْتِ الشَّجَرَةِ ؛ بِسَبَبِ أَرْضِيَّتِهِ الخَشَبِيَّةِ ، وَلِهَذا جَمَعْنا كَمِّيَّةً

كَبيرَةً مِنَ الخَشَبِ الصّالِحِ لِلْوَقودِ ، وَاحْتَفَظْنا بِها عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ .

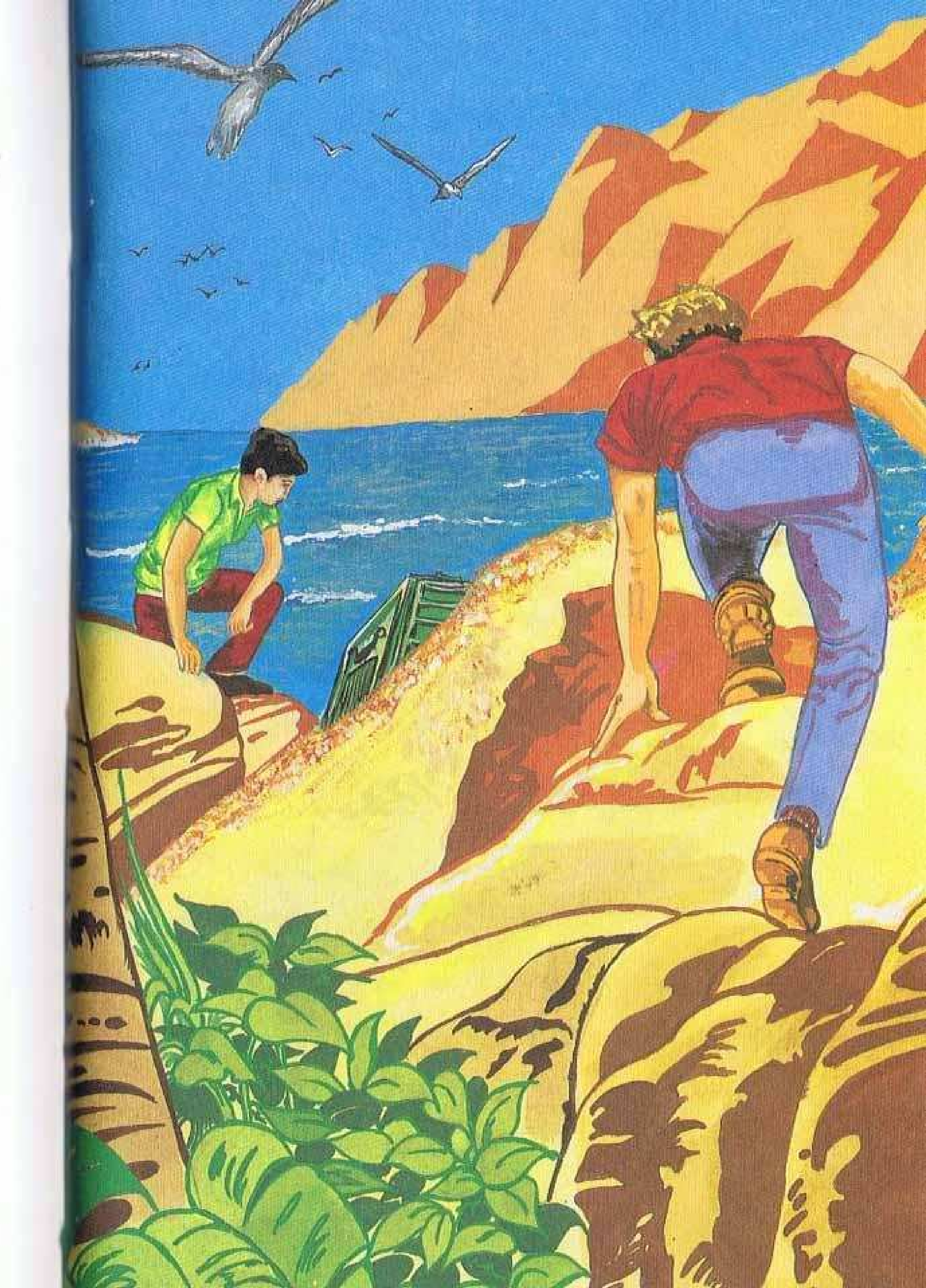
عِنْدَئِذٍ قُلْتُ لِنَفْسي : « أَثْناءَ الجَوِّ العاصِفِ ، لَنْ يَكونَ في اسْتِطاعَتِنا أَنْ نَذْهَبَ بَعيدًا عَنْ بَيْتِنا لِجَمْعِ الطَّعامِ ؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ التَّأَكُّدُ مِنْ أَنَّ لَدَيْنا مَخْزونًا كافِيًا مِنْهُ في البَيْتِ أَوْ بِالقُرْبِ مِنْهُ ، بِحَيْثُ يُمْكِنُنا اسْتِخْدامُهُ عِنْدَما يَسوءُ الطَّقْسُ .»

إِنَّ لَدَيْنا بَراميلَ مِنْ لَحْمِ الجاموسِ المُمَلَّحِ ، آمُلُ أَنْ يَظَلَّ صالِحًا لِلطَّعامِ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتِنا الحُصولُ عَلى مَزيدٍ مِنَ المِلْحِ . لَقَدْ كانَتِ الأَمْواجُ تَعْلو فَوْقَ الصُّخورِ ، لكِنْ لَمْ تَكُنْ هُناكَ شَمْسٌ ساطِعَةٌ لِتُبَخِّرَ الماءَ وَتُجَفِّفَ المِلْحَ .

وَكانَ لَدَيْنا بَيْضٌ ، نَأْخُذُهُ مِنْ دَجاجِنا . وَبِاسْتِخْدامِ خَيْطِ الصَّيْدِ الَّذي أَحْضَرْناهُ مِنَ السَّفينَةِ ، قَدْ يَكونُ في اسْتِطاعَتِنا أَنْ نَصيدَ سَمَكًا ، رَغْمَ أَنَّ هَذا لَنْ يَكونَ سَهْلاً في حالَةِ اضْطِرابِ البَحْرِ . وَكانَتْ لَدَيْنا بَطاطا حُلْوَةٌ ، وَكَمِّيَّةٌ كَبيرَةٌ مِنْ جَوْزِ الهِنْدِ . وَيُمْكِنُ لِلْمَعْزِ أَنْ تُعْطِيَنا قَليلاً مِنَ اللَّبَنِ ، فَالبَقَرَةُ لَمْ تَعُدْ تُعْطينا الكَثيرَ مِنْهُ ، وَكانَتْ هُناكَ كَمِّيّاتٌ وافِرَةٌ مِنَ الحَشائِشِ الجافَّةِ لإِطْعامِ حَيَواناتِنا .

قُلْتُ : « حَسَنٌ ، إنَّ لَدَيْنا مكانًا مُناسِبًا ، وَطَعامًا وَفيرًا ؛ وَلِهَذا نَكونُ قَدْ أَعْدَدْنا أَنْفُسَنا جَيِّدًا لِفَصْلِ الشِّتاءِ .»

كانَ هَذا ما ظَنَنْتُ ، لَكِنَّني كُنْتُ مُخْطِئًا ، كُنْتُ مُخْطِئًا أَشَدَّ الخَطَأ !



الفصل الخامس عشر

الشِّتاءُ

أَعْتَقِدُ أَنَّ الشُّهورَ القَليلَةَ التّالِيَةَ كانَتْ أَتْعَسَ شُهورٍ عَرَفْتُها في حَياتي . لَقَدْ واجَهْنا أَرْبَعَةَ أَعْداءٍ : الأَمْطارُ ، وَالرِّياحُ ، وَالبَرْدُ ، وَالنَّهارُ القَصيرُ . وَمَعَ أَنَّ النَّهارَ لَمْ يَكُنْ شَديدَ القِصَرِ ، إِلا أَنَّنا كُنّا نُضْطَرُّ إِلى البَقاءِ وَقْتاً طَويلاً في البَيْتِ ، بِسَبَبِ الطَّقْسِ السَّيِّئِ .

كانَتِ الأَمْطارُ تَنْهَمِرُ بِغَزارَةٍ كَأَنَّها أَنْهارٌ ، وَكانَتْ تَسْتَمِرُّ طَوالَ النَّهارِ وَاللَّيْلِ تَقْريبًا ، وَمَعَ ذَلِكَ كانَتْ هُناكَ أَيّامٌ قَليلَةٌ تَوَقَّفَتْ فيها . وَأَغْرَقَتِ المِياهُ الأَرْضَ كُلَّها ، وَأَصْبَحَ النَّهْرُ جِدَّ مُتَّسِعٍ ، حَتّى إِنَّنا لَمْ نَسْتَطِعْ عُبورَهُ ؛ فَلَقَدْ تَحَطَّمَ جِسْرُنا . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ ، أَنَّ حَديقَتَنا كانَتْ فَوْقَ أَرْضٍ مُرْتَفِعَةٍ ، وَبَدَأَتْ مَزْروعاتُنا تَشُقُّ طَريقَها فَوْقَ سَطْحِ الأَرْضِ .

وَكانَتِ الرّيحُ شَديدَةً . وَعِنْدَما أَقَمْنا بَيْتَنا فَوْقَ الشَّجَرَةِ ، لَمْ أُفَكِّرْ

في أَنَّ الرّيحَ يُمْكِنُ أَنْ تَعْصِفَ بِهِ ، فَالبَيْتُ إِذا أُقيمَ عَلى الأَرْضِ ، وَكانَتْ لَهُ جُدْرانٌ قَوِيَّةٌ وَسَقْفٌ مُنْخَفِضٌ ، فَإِنَّ الرّيحَ يُمْكِنُ أَنْ تَهُبَّ عَلَيْهِ ، وَيَبْقى البَيْتُ راسِخًا .

أَمّا فيما يَتَعَلَّقُ بِبَيْتٍ مُقامٍ فَوْقَ شَجَرَةٍ ، فَمِنَ السَّهْلِ أَنْ تَعْصِفَ بِهِ الرّيحُ . كانَ سَقْفُ بَيْتِنا مَصْنوعاً مِنْ قُماشٍ ، وَقَدْ تَجَمَّعَ ماءُ المَطَرِ فَوْقَهُ فيما يُشْبِهُ بُحَيْرَةً عَميقَةً ، فَتَسَرَّبَتْ مِنْهُ قَطَراتٌ كَثيرَةٌ فَوْقَ أَرْضِيَّةِ البَيْتِ ، ثُمَّ هَبَّتْ ريحٌ شَديدَةٌ ، أَطارَتْ قُماشَ الشِّراعِ وَقَلَبَتْهُ رَأْساً عَلى عَقِبٍ ، فَتَدَفَّقَ نَهْرٌ مِنْ ماءِ المَطَرِ داخِلَ الغُرْفَةِ .

وَأَصْبَحَتِ الأَيّامُ أَشَدَّ بُرودَةً عَمّا كانَتْ ، أَمّا اللَّيالي فَقَدْ صارَتْ شَديدَةَ البُرودَةِ جِدًّا . وَكُنّا نَقْضي اليَوْمَ كُلَّهُ في مَلابِسَ مُبْتَلَّةٍ ، وَلَمْ تَكُنْ لَدَيْنا وَسيلَةٌ لِتَجْفيفِها . وَأَثْناءَ اللَّيالي الَّتي يَشْتَدُّ فيها البَرْدُ ، لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ وَسيلَةً لِلتَّدْفِئَةِ .

لَمْ تَكُنْ لَدَيْنا مِدْفَأَةٌ . وَلَقَدْ وَضَعْنا بَعْضَ الأَحْجارِ عَلى أَرْضِيَّةِ مَنْزِلِنا الشَّجَرِيِّ ، وَأَشْعَلْنا ناراً فَوْقَها ، لَكِنْ سَرْعانَ ما امْتَلأَتِ الغُرْفَةُ بِالدُّخانِ ، وَخَشينا أَنْ تَشْتَعِلَ الأَرْضِيَّةُ !

وَفي الأَيّامِ الجافَّةِ ، كُنّا نَخْشى أَيْضًا أَنْ يَشْتَعِلَ القُماشُ الَّذي

اسْتَخْدَمْناهُ سَقْفًا . ولَمْ نَسْتَطِعِ التَّوَصُّلَ إلى طَرِيقَةٍ لإخْراجِ الدُّخانِ مِنَ الغُرْفَةِ ؛ ذَلِكَ أنَّنا إذا صَنَعْنا ثَقْبًا في السَّقْفِ ، فَإنَّ الأمْطارَ قَدْ تَسْقُطُ مِنْ خِلالِهِ فَوْقَ النّارِ .

وَعِنْدَما تَغْرُبُ الشَّمْسُ ، يُخَيِّمُ الظَّلامُ ، وَلَكِنْ حَتّى أثْناءَ ضَوْءِ النَّهارِ ، تَظَلُّ الغُرْفَةُ مُظْلِمَةً إلى حَدٍّ ما ، فَلَمْ تَكُنْ لَدَيْنا وَسِيلَةٌ لِلإضاءَةِ . وَقَدْ وَجَدْنا بَعْضَ البُذُورِ الشَّمْعِيَّةِ ، أطْلَقْنا عَلَيْها اسْم « حُبُوبِ الشَّمْعِ » ، وَكانَتْ تَشْتَعِلُ فَتُعْطِي ضَوْءًا خافِتًا جِدًّا ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِالضَّوْءِ الكافي لِنَسْتَفِيدَ بِهِ عَلى أيِّ وَجْهٍ ؛ لِهَذا فَإنَّهُ أثْناءَ اللَّيْلِ ، كُنّا نَجْلِسُ في حَلْقَةٍ بِمَلابِسِنا المُبْتَلَّةِ ، وَنَحْنُ نَشْعُرُ بِبَرْدٍ شَدِيدٍ ، يُحِيطُ بِنا الظَّلامُ ، وَلا نَجِدُ ما نَقُومُ بِهِ إلا الذَّهابَ لِلنَّوْمِ !

وَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُمْكِنِ أنْ نُواصِلَ الحَياةَ عَلى هَذا النَّحْوِ .

قُلْتُ : « لا بُدَّ أنْ نَنْزِلَ وَنَعِيشَ عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ . سَنَبْسُطُ قُماشَ الشِّراعِ فَوْقَ هَذِهِ الأرْضِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ نَجِدُ فَوْقَنا سَقْفَيْنِ : السَّقْفُ الَّذي سَبَقَ أنْ صَنَعْناهُ فَوْقَ الشَّجَرَةِ ، وَالسَّقْفُ الَّذي سَنَضَعُهُ فَوْقَ هَذِهِ الأرْضِيَّةِ ؛ وَبِذَلِكَ يُمْكِنُ أنْ نَتَجَنَّبَ البَلَلَ ، وَنَسْتَمْتِعَ

بِالجَفافِ عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ .»

وَعِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ ، أقَمْنا حائِطَيْنِ لِغُرْفَتِنا ، أمّا الحائِطُ الثّالِثُ فَكانَ لِحَظائِرِ الحَيَواناتِ ، وَكانَ جِذْعُ الشَّجَرَةِ نَفْسِها هُوَ الحائِطَ الرّابِعَ . وَصَنَعْنا ثَقْبًا في أرْضِيَّةِ الغُرْفَةِ العُلْوِيَّةِ ، يَتَسَرَّبُ مِنْهُ الدُّخانُ المُتَصاعِدُ مِنْ نارِنا ، بِغَيْرِ أنْ تَكُونَ هُناكَ فُرْصَةٌ لِسُقُوطِ ماءِ المَطَرِ مُباشَرَةً فَوْقَ النّارِ .

وَعِنْدَما كُنّا نُضْطَرُّ إلى البَقاءِ في البَيْتِ طَوالَ النَّهارِ ، كُنّا نَقْضي الوَقْتَ في صُنْعِ حَصِيرَةٍ مِنْ نَباتِ الخَيْزُرانِ ، لِفَرْشِها فَوْقَ أرْضِيَّةِ البَيْتِ . وَلا شَكَّ أنَّنا أصْبَحْنا أحْسَنَ حالاً في هَذِهِ الغُرْفَةِ الأرْضِيَّةِ ، لَكِنَّ رائِحَةَ الحَيَواناتِ الَّتي تَأْتِينا مِنْ أحَدِ الجَوانِبِ ، كانَتْ في مُعْظَمِ الأوْقاتِ أشَدَّ مِنْ قُدْرَتِنا عَلى الاحْتِمالِ !

وَبَعْدَ فَتْرَةٍ ، بَدَأْنا نُواجِهُ صُعُوباتٍ تَتَعَلَّقُ بِالطَّعامِ ؛ فَلَحْمُ الجامُوسِ الَّذي كُنّا قَدْ مَلَّحْناهُ في البَرامِيلِ ، قَدْ فَسَدَ ، إذْ لَمْ نَكُنْ قَدْ وَضَعْنا عَلَيْهِ ما يَكْفي مِنَ المِلْحِ ، وَقَدْ فاتَني أنْ أُدْرِكَ مِقْدارَ أهَمِّيَّةِ المِلْحِ لِحِفْظِ الطَّعامِ ، خِلالَ الشُّهُورِ الَّتي يَسُوءُ فيها الطَّقْسُ !

وَذَبَحنا بَعْضَ الدَّجاجاتِ كَبيرَةِ السِّنِّ ، وأَكَلْناها . وَعِنْدَما كانَ الطَّقْسُ يَتَحَسَّنُ ، كانَ في اسْتِطاعَةِ الأَوْلادِ أَنْ يَذْهَبوا لِصَيْدِ الأَسْماكِ ، وَكانوا يُحْضِرونَ لَنا قَليلاً مِنَ اللَّحْمِ أَوِ السَّمَكِ .

وَكانَتْ عِنْدَنا البَطاطا الحُلْوَةُ ، لَكِنَّ الطَّهْيَ كانَ صَعْبًا لِلْغايَةِ . وَعِنْدَما كانَ الجَوُّ يَتَحَسَّنُ ، كانَتْ زَوْجَتي تَصْنَعُ مِنْ خُبْزِ البَطاطا الحُلْوَةِ ما يَكْفي لَنا عِدَّةَ أَيّامٍ ، لَكِنَّ مَذاقَهُ لَمْ يَكُنْ مَقْبولاً .

وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْنا طَعامٌ كافٍ لِلْحَيَواناتِ ؛ فَتَخَلَّصْنا مِنْ أَرْبَعَةِ كِلابٍ صَغيرَةٍ ، وَأَبْقَيْنا طِرْك وَفلورا وَ جِرْوَيْنِ . وَكانَ لا بُدَّ مِنْ تَوْفيرِ الطَّعامِ لِلْبَقَرَةِ وَالمَعْزِ وَالجاموسَتَيْنِ ، وَ وَجَدْتُ أَنَّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نُقَدِّمَ لَها جَميعًا ما يَكْفيها مِنْ طَعامٍ وَهِيَ في حَظائِرِها ؛ لِذَلِكَ صَنَعْنا لَها أَجْراسًا مِنْ أَغْلِفَةِ جَوْزِ الهِنْدِ ، وَعَلَّقْناها حَوْلَ أَعْناقِها ، ثُمَّ تَرَكْناها تَخْرُجُ لِتَبْحَثَ عَنْ طَعامِها . وَفي كُلِّ لَيْلَةٍ ، كُنّا نَضَعُ قَليلاً مِنَ الطَّعامِ في حظائِرِها ، لِكَيْ يُغْرِيَها هَذا بِالعَوْدَةِ إِلى بُيوتِها . وَ كانَتْ تَعودُ إِلى الحَظائِرِ أَثْناءَ اللَّيْلِ ، أَمّا خِلالَ النَّهارِ ، فَكُنّا نُطْلِقُها لِتَبْحَثَ بِنَفْسِها عَنْ طَعامِها .

الفصل السادس عشر

بَيْتٌ في كَهْفٍ

مِنَ الصَّعْبِ أَنْ أُعَبِّرَ عَنْ مَدى سَعادَتِنا ، عِنْدَما تَوَقَّفَتِ العَواصِفُ ، وَعادَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ مِنْ جَديدٍ ، بَعْدَ تِلْكَ الأَسابيعِ المَطيرَةِ الطَّويلَةِ . وَخَرَجْنا مِنْ غُرْفَتِنا المُعْتِمَةِ ذاتِ الرّائِحَةِ السَّيِّئَةِ ، وَأَخَذْنا نَتَطَلَّعُ إِلى السَّماءِ حَوْلَنا : كانَتِ الحَشائِشُ خَضْراءَ كَثيفَةً ، تَنْمو في وَسَطِها الأَزْهارُ . وَفي حَديقَتِنا أَيْضًا كانَتِ المَزْروعاتُ تَنْمو نُمُوًّا حَسَنًا ، وَقَدِ اكْتَشَفَتِ الطُّيورُ ذَلِكَ .

وَكَلَّفْنا جاك بِالحِراسَةِ ، تُساعِدُهُ فلورا ، لِإِبْعادِ الطُّيورِ عَنِ الحَديقَةِ . كَما أَنَّ الشِّباكَ الَّتي أَحْضَرْناها لِصَيْدِ السَّمَكِ نَفَعَتْنا في المُحافَظَةِ عَلى مَزْروعاتِنا آمِنَةً مِنَ الطُّيورِ وَالحَيَواناتِ .

وَ وَضَعْنا مَلابِسَنا في الشَّمْسِ لِتَجِفَّ ، ثُمَّ انْهَمَكْنا في العَمَلِ

لِنُعيدَ بَيْتَ الشَّجَرَةِ صالِحاً لِلاسْتِعْمالِ . وَخِلالَ بِضْعَةِ أيّامٍ ، أصْبَحَ في مَقْدورِنا أنْ نَتْرُكَ الغُرْفَةَ عِنْدَ جِذْعِ الشَّجَرَةِ ، وَأنْ نَعودَ ثانِيَةً إلى بَيْتِنا المُضيءِ ، الَّذي نُحِسُّ فيهِ بِالسَّعادَةِ الحَقيقِيَّةِ .

قالَتْ زَوْجَتي : « الآنَ ، سَنَظَلُّ سُعَداءَ إلى أنْ يَبْدَأَ الشِّتاءُ القادِمُ ، فَتُصيبَنا التَّعاسَةُ مَرَّةً أخْرى . إنَّني لَنْ أسْتَطيعَ تَحَمُّلَ شِتاءٍ آخَرَ مِثْلِ هَذا ، فَقَدْ يَتَسَبَّبُ ذَلِكَ في مَوْتي . أنا واثِقَةٌ بِأنَّ الإنْسانَ الأوَّلَ ، الَّذي عاشَ مُنْذُ آلافِ السِّنينَ ، لَمْ يَسْكُنْ عَلى الأشْجارِ مِثْلَ القُرودِ ، بَلْ لَقَدْ سَكَنَ الكُهوفَ ، وَلا بُدَّ أنْ نَجِدَ كَهْفاً . »

وَكُنْتُ أعْرِفُ أنَّها عَلى حَقٍّ ، فَخَرَجْتُ وَسِرْتُ عَلى طولِ الشّاطِئِ ، أتَأمَّلُ التِّلالَ الَّتي تُواجِهُ البَحْرَ . كانَ بَعْضُها يَنْحَدِرُ بِاسْتِقامَةٍ ، كَأنَّها حَوائِطُ عَلى الشّاطِئِ ، وَكانَتْ تِلْكَ هِيَ الأماكِنَ الَّتي يُمْكِنُ أنْ أجِدَ فيها كَهْفاً . وَ واصَلْتُ السَّيْرَ لَكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ رُؤْيَةَ كُهوفٍ ، أوْ عَلى الأقَلِّ ، لَمْ أجِدْ كَهْفاً واسِعاً يَكْفي أُسْرَتي .

وَعُدْتُ ، وَأخْبَرْتُ زَوْجَتي وَالأوْلادَ أنَّني لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أجِدَ كَهْفاً يُمْكِنُ أنْ يَكونَ مَقَرّاً لَنا .

قالَ فِرِتْز : « إذا لَمْ يَكُنِ الكَهْفُ مُتَّسِعاً بِما فيهِ الكِفايَةُ ؛ فَعَلَيْنا

أنْ نَحْفِرَ في الصَّخْرِ لِنُوَسِّعَهُ . »

قُلْتُ : « يُمْكِنُكَ أنْ تُحاوِلَ ، لَكِنَّ الصُّخورَ جِدُّ صُلْبَةٍ ، وَلا أدْري ما إذا كانَتِ المُحاوَلَةُ مُمْكِنَةً . سَأصْحَبُكَ إلى أفْضَلِ كَهْفٍ وَجَدْتُهُ ، إنَّهُ لَيْسَ أسْفَلَ الجَبَلِ تَماماً ، وَلَعَلَّ أمْواجَ البَحْرِ هِيَ الَّتي حَفَرَتْهُ ذاتَ يَوْمٍ ، لَكِنَّ الأرْضَ ارْتَفَعَتْ وَأصْبَحَ سَطْحُ البَحْرِ مُنْخَفِضاً ، فَتَرَكَتْهُ الأمْواجُ هُناكَ . هَيّا بِنا نَذْهَبْ إلَيْهِ ، وَخُذْ مَعَكَ الأدَواتِ ، وَسَنَرى ما الَّذي نَسْتَطيعُ أنْ نَقومَ بِهِ . »

وَهَكَذا ذَهَبْنا إلى الكَهْفِ ، وَاسْتَطَعْنا أنْ نَجْعَلَ عُمْقَهُ مِتْرَيْنِ فَقَطْ . كانَ الصَّخْرُ جِدَّ صُلْبٍ ، وَقَدْ فَكَّرْتُ في أنَّهُ يُمْكِنُنا أنْ نُحْدِثَ فُتْحَةً ، ثُمَّ نَضَعَ فيها باروداً ، فَيُساعِدَنا التَّفْجيرُ عَلى الإسْراعِ بِالعَمَلِ ، لَكِنَّني لَمْ أرْغَبْ في اسْتِخْدامِ كَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنْهُ . لَقَدْ كانَ البارودُ هاما جِدّاً لِبَنادِقِنا وَلَمْ أعْرِفْ ماذا أفْعَلُ .

قُلْتُ لِفِرِتْز : « هَلْ نَعْدِلُ عَنِ الفِكْرَةِ ، أمْ نَسْتَمِرُّ في الحَفْرِ ، أمْ نُفَكِّرُ في وَسيلَةٍ أخْرى ؟ »

قالَ فِرِتْز : « أعْتَقِدُ أنَّهُ كُلَّما تَقَدَّمْنا في العَمَلِ ، أصْبَحَتِ الصُّخورُ أقَلَّ صَلابَةً . إنَّ قِطْعَةَ الصَّخْرِ الَّتي أمامي هُنا تَبْدو

أضْعَفَ .»

وَكانَ جاك ، أصْغَرُنا ، قَدِ انْهَمَكَ يَعْمَلُ في أعْمَقِ الأماكِنِ الّتي حَفَرْناها .

وَذاتَ صَباحٍ صاحَ : « لَقَدْ قُمْتُ بِالْمُهِمَّةِ ! لَقَدْ قُمْتُ بِالْمُهِمَّةِ ! لَقَدِ اخْتَرَقْتُ الصُّخورَ ! »

قالَ فرِتْز: « لا تَكُنْ غَبِيا ؛ فَإنَّكَ لا تَسْتَطيعُ اخْتِراقَ الصُّخورِ بِهَذا القَضيبِ الصَّغيرِ الّذي تَعْمَلُ بِهِ عِنْدَكَ .»

قالَ جاك : « لَكِنَّني قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ حَقا . لَقَدْ فَعَلْتُهُ .»

تَقَدَّمَ إلَيْهِ فرِتْز لِيَتَأكَّدَ مِمّا يَقولُ ، وَسَرْعانَ ما عادَ وَهُوَ يَقولُ : « إنَّهُ عَلى حَقٍّ تَمامًا ، يا أبي . جاك عَلى حَقٍّ ! أنا لا أسْتَطيعُ إدْراكَ حَقيقَةِ الأمْرِ . إنَّكَ تَسْتَطيعُ دَفْعَ قَضيبٍ مِنْ حَديدٍ في الصُّخورِ إلى أعْمَقِ ما تَسْتَطيعُ ، فَلا تَجِدُ شَيْئًا تَصْطَدِمُ بِهِ . كَما أنّني أسْتَطيعُ تَحْريكَ القَضيبِ في الفُتْحَةِ بِكُلِّ سُهولَةٍ .»

وَتَمَلَّكَتْني دَهْشَةٌ شَديدَةٌ ، فَأخَذْتُ عودًا طَويلاً مِنَ الخَيْزُرانِ ، وَ وَضَعْتُهُ في الفُتْحَةِ .

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، لَيْسَ ثَمَّ شَيْءٌ خَلْفَ هَذا الصَّخْرِ ! »

قالَ فرِتْز : « هَيّا نَعْمَلْ عَلى تَوْسيعِ الفُتْحَةِ ؛ حَتّى يَسْتَطيعَ واحِدٌ مِنّا أنْ يَمُرَّ مِنْ خِلالِها .»

قُلْتُ : « مِنَ الْمُحْتَمَلِ إذا دَخَلَ أحَدُكُمْ مِنْها ، أنْ يَسْقُطَ مِنِ ارْتِفاعٍ شاهِقٍ ، فَتَتَسَبَّبَ السَّقْطَةُ في مَوْتِهِ . يَجِبُ أنْ نَكونَ في غايَةِ الحَذَرِ . هَيّا نَعْمَلْ عَلى تَوْسيعِ الفُتْحَةِ قَليلاً ، لِكَيْ أتَمَكَّنَ مِنْ إلْقاءِ نَظْرَةٍ عَلى ما وَرائِها .»

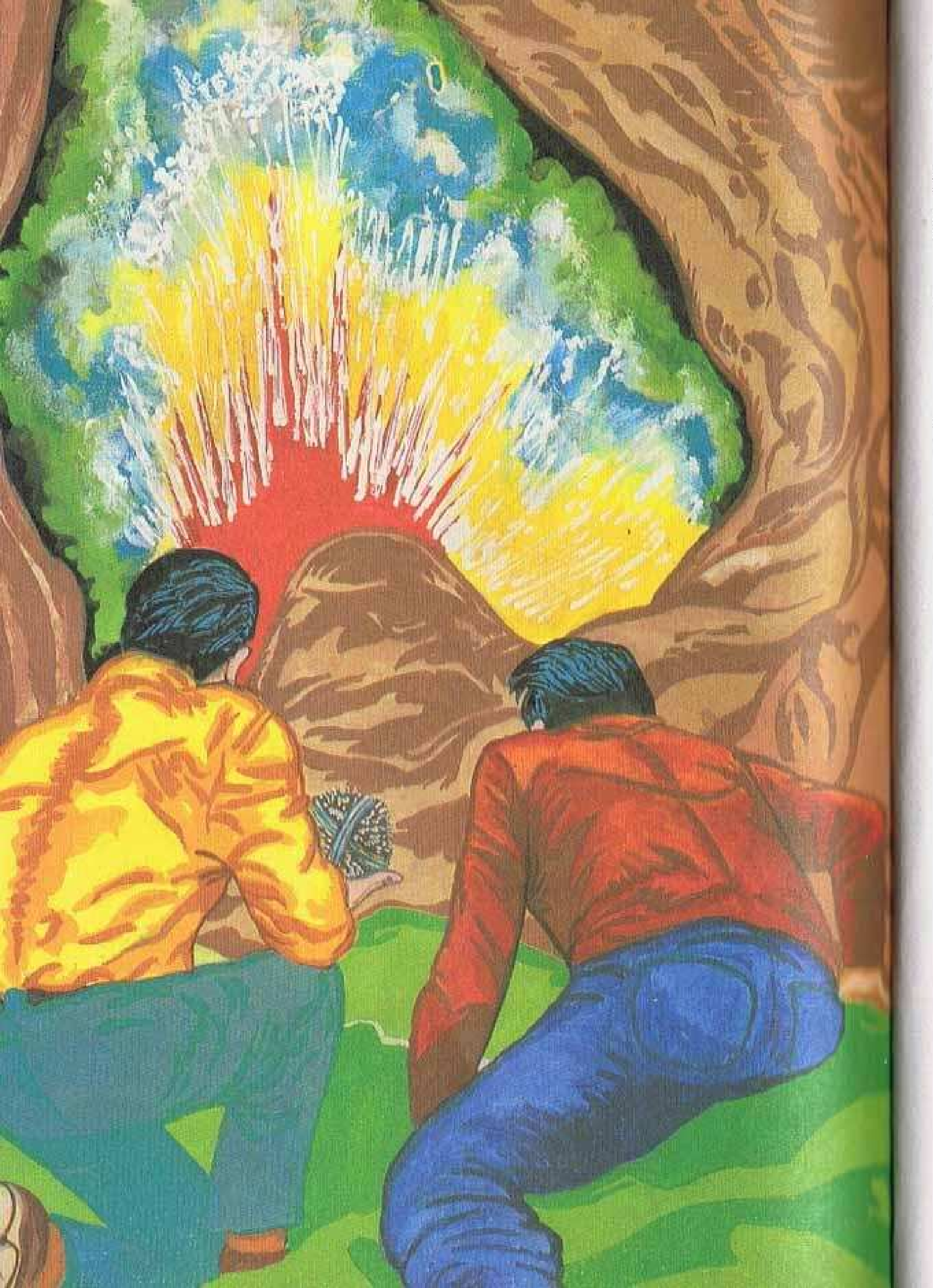
وَهَكَذا عَمِلْنا عَلى تَوْسِعَةِ الفُتْحَةِ ، وَ وَضَعْتُ رَأسي داخِلَها . وَفَجْأةً شَعَرْتُ بِدُوارٍ شَديدٍ ، فَتَراجَعْتُ بِسُرْعَةٍ إلى الخَلْفِ .

قُلْتُ : « كونوا عَلى حَذَرٍ ، يا أوْلادي ! يَجِبُ ألا تَدْخُلوا هَذا الكَهْفَ ، إذا كانَ هُناكَ كَهْفٌ حَقا . إنَّ الهَواءَ فاسِدٌ هُناكَ ، وَالدُّخولَ إلَيْهِ مَعْناهُ الْمَوْتُ الْمُحَقَّقُ . وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، يَجِبُ أنْ نَطْرُدَ ذَلِكَ الهَواءَ الفاسِدَ .»

سَألَ فرِتْز : « كَيْفَ يُمْكِنُ أنْ نَقومَ بِذَلِكَ ؟ »

قُلْتُ : « يَجِبُ أنْ نُشْعِلَ نارًا .» وَ وَضَعْنا حَشائِشَ وَعِصِيًا مُشْتَعِلَةً في الكَهْفِ ، لَكِنَّ النّارَ سَرْعانَ ما انْطَفَأتْ .

قالَ إرْنِسْت : « مِنَ الْمُحْتَمَلِ إذا أشْعَلْنا نارًا أمامَ مَدْخَلِ الفُتْحَةِ



أنْ يَطْرُدَ الهواءُ السّاخِنُ الهواءَ البارِدَ مِنَ الكَهْفِ .»

قُلْتُ : « قَدْ يَحْدُثُ هذا ، لكِنْ أظُنُّ أنَّ الأمْرَ سَيَحْدُثُ بِبُطْءٍ شَديدٍ ، كَما أنَّ الأمانَ لَنْ يَتَوافَرَ كَثيراً في هذِهِ المُحاوَلَةِ . وَأعْتَقِدُ أنَّهُ قَدْ حانَ الوَقْتُ الَّذي يُمْكِنُ أنْ نَسْتَخْدِمَ فيهِ بَعْضَ ما لَدَيْنا مِنْ بارودٍ، لِطَرْدِ الهَواءِ الفاسِدِ مِنَ الكَهْفِ .»

لِهذا تَناوَلْتُ بَعْضَ أغْلِفَةِ جَوْزِ الهِنْدِ ، وَحَشَوْتُها بِالبارودِ ، ثُمَّ رَبَطْتُها رَبْطًا مُحْكَمًا مَرَّةً بَعْدَ أخْرى ، لأصْنَعَ نَوْعًا مِنَ المُتَفَجِّراتِ ، ثُمَّ أشْعَلْتُ النّارَ في إحْداها ، وَألْقَيْتُها سَريعًا في الكَهْفِ . وَسَمِعْنا صَوْتَ انْفِجارٍ شَديدٍ ، وَانْدَفَعَ الهَواءُ الفاسِدُ إلى الخارِجِ مُخْتَلِطًا بِالدُّخانِ . وَقَدْ أحْدَثْتُ انْفِجارَيْنِ آخَرَيْنِ ، ثُمَّ عُدْنا لِتَجْرِبَةِ إشْعالِ النّارِ داخِلَ الكَهْفِ .

وَفي هذِهِ المَرَّةِ ، ظَلَّتِ النّارُ مُشْتَعِلَةً ، وَلَمْ يَكُنْ الاشْتِعالُ شَديداً ، لكِنَّ الدُّخانَ وَالهَواءَ السّاخِنَ خَرَجا مِنَ الفُتْحَةِ . وَسَرْعانَ ما أخَذَ وَهَجُ النّارِ يَشْتَدُّ حَتّى اشْتَعَلَتْ داخِلَ الكَهْفِ بِتَوَهُّجٍ كامِلٍ ، يُماثِلُ تَماماً اشْتِعالَها في الهَواءِ الطَّلْقِ .

قُلْتُ لإرْنِسْت : « أسْرِعْ إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ ، وَأحْضِرْ كُلَّ ما

لَدَيْنا مِنْ حُبوبِ الشَّمْعِ ، فَمِنَ المُمْكِنِ اسْتِخْدامُها للإضاءَةِ عِنْدَما نَدْخُلُ الكَهْفَ .»

قُمْنا بِتَوْسيعِ المَدْخَلِ ، فَتَسَلَّلَ ضَوْءُ النَّهارِ إلى الكَهْفِ ، واسْتَطَعْنا أنْ نرى أقْرَبَ الجَوانِبِ إلى المَدْخَلِ . وَنَظَرَ جاك إلى الدّاخِلِ وَقالَ : « كَأنَّهُ كَهْفٌ في حِكايَةٍ خَيالِيَّةٍ ! إنَّ الجُدْرانَ مُغَطّاةٌ بِالجَواهِرِ ! إنَّهُ شَيْءٌ رائِعٌ !»

وَنَظَرْتُ أنا بِدَوْري داخِلَ الكَهْفِ ، وَ وَجَدْتُ أنَّ جاك كانَ عَلى حَقٍّ ؛ إذْ كانَتِ الجُدْرانُ مُغَطّاةً بِالبَلّوراتِ .

قُلْتُ : « هَذا عَجيبٌ جدًّا ! لكِنْ أيُّ نَوْعٍ مِنَ البَلُّوراتِ ؟ فَهُناكَ بَلُّوراتُ السُّكَّرِ ، وَبَلُّوراتُ المِلْحِ ، وَبَلُّوراتٌ لأشْياءَ أخْرى كَثيرَةٍ ، وَالجَواهِرُ هِيَ أيْضًا بَلُّوراتٌ .»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، عادَ إرْنِسْت مِنْ بَيْتِ الشَّجَرَةِ ، وَقَدْ أحْضَرَ مَعَهُ الحُبوبَ الشَّمْعِيَّةَ ، فَدَخَلْتُ قَبْلَ الباقينَ لأتأكَّدَ أنَّ الهَواءَ أصْبَحَ صالِحًا .

وَتَأمَّلْتُ الجُدْرانَ ، فَوَجَدْتُها مُغَطّاةً – حَقيقَةً – بِالبَلّوراتِ ، كانَ بَعْضُها قَدْ سَقَطَ عَلى الأرْضِ بِسَبَبِ الانْفِجاراتِ ، فَتَناوَلْتُ واحِدَةً

مِنْها ، وَتَذَوَّقْتُها .

كانَتْ مِلْحًا ! لَنْ نُعانِيَ مِنَ الحاجَةِ إلى المِلْحِ أبدًا بَعْدَ الآنَ ، وَفي الشِّتاءِ القادِمِ سَيَكونُ لَدَيْنا كَمِّيّاتٌ وَفيرَةٌ مِنْهُ ، لِنَحْفَظَ ما لَدَيْنا مِنْ لُحومٍ خِلالَ فَتْرَةِ الطَّقْسِ السَّيِّئِ . وَ لَنْ نَكونَ في حاجَةٍ فيما بَعْدُ لِجَمْعِ المِلْحِ مِنْ فَوْقِ صُخورِ الشّاطِئِ .

لَقَدْ كانَ كَهْفًا جِدَّ رَحْبٍ ، وَ وَجَدْتُ أنَّهُ يُمْكِنُنا أنْ نُقيمَ مَخْزَنًا في أعْمَقِ مَكانٍ فيهِ ، وَأنْ نُخَصِّصَ غُرْفَةً لِلنَّوْمِ ، كَما يُمْكِنُ أنْ نُخَصِّصَ مَكانًا فَسيحًا لِلطَّبْخِ ، وَمَكانًا لِغُرْفَةِ المَعيشَةِ .

قُلْتُ : « لكِنْ هُناكَ شَيْءٌ واحِدٌ عَلَيْنا أنْ نَقومَ بِهِ في الحالِ . أعْتَقِدُ أنَّ هَذا الجانِبَ مِنَ الكَهْفِ لَيْسَ بَعيدًا عَنْ مَصْدَرِ الهَواءِ الخارِجِيِّ . سَأطْرُقُ الصُّخورَ داخِلَ الكَهْفِ ، وَتَذْهَبُ ، يا فِرِتْز ، إلى الخارِجِ وَتُصْغي . وَعَلَيْكَ أنْ تُخْبِرَني أيْنَ تَسْتَطيعُ أنْ تَسْمَعَ طَرَقاتي عَلى نَحْوٍ أكْثَرَ وُضوحًا . سَأقومُ بِطَرْقِ الصُّخورِ مَرَّتَيْنِ في كُلِّ مَكانٍ ، وَعَلَيْكَ أنْ تُحَدِّدَ المَكانَ الَّذي تَسْمَعُ فيهِ الطَّرْقَتَيْنِ بِوُضوحٍ أكْثَرَ ، ثُمَّ ضَعْ عَصًا لِتَحْديدِ المَكانِ .»

وَخَرَجَ فِرِتْز ، وَبَدَأْتُ أطْرُقُ جَوانِبَ الكَهْفِ في أماكِنَ مُخْتَلِفَةٍ .

وَبَعْدَ قَليلٍ عادَ فِرِتز وَقالَ : « لَقَدْ حَدَّدْتُ أَفْضَلَ مَكانٍ ، فَسَمِعْتُ طَرَقاتِكَ بِوُضوحٍ كامِلٍ . »

قُلْتُ : « إذًا لَنْ يَكونَ صَعْبًا أَنْ نَصْنَعَ ثَقْبًا في ذَلِكَ المَكانِ ، يَصِلُ ما بَيْنَ الهَواءِ الخارِجِيِّ وَالكَهْفِ . سَيَكونُ عَمَلاً شاقا ، لَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَقومَ بِهِ . »

وَكانَ العَمَلُ شاقا فِعْلاً ، لَكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَصْبَحَ في إِمْكانِ فِرِتْز أَنْ يَضَعَ قَصَبَةَ خَيْزُرانٍ خِلالَ الثَّقْبِ ، فَوَصَلَ طَرَفُها إلى داخِلِ الكَهْفِ ، ثُمَّ قُمْنا بِتَوْسِعَةِ الثَّقْبِ مِنْ داخِلِ الكَهْفِ .

قُلْتُ : « وَالآنَ يُمْكِنُ أَنْ نُقيمَ مَوْقِدًا ، وَنَصْنَعَ لَهُ مِدْخَنَةً . سَنَبْني جُزْءًا مِنَ المِدْخَنَةِ خارِجَ الكَهْفِ ، وَنُقيمُ المَوْقِدَ داخِلَهُ . »

وَبَدَأْنا في العَمَلِ ، مُسْتَخْدِمينَ الطّينَ وَقِطَعَ الحِجارَةِ ، فَأَقَمْنا مَوْقِدًا وَمِدْفَأَةً مُمْتازَةً ، كَما بَنَيْنا مِدْخَنَةً في الخارِجِ .

قُلْتُ : « وَالآنَ ، هَيّا نُجَرِّبْ مِدْخَنَتَنا ، لِنَرى ما إذا كانَتْ تَعْمَلُ عَلى نَحْوٍ سَليمٍ . »

وَأَشْعَلْنا نارًا ، لَكِنَّ الدُّخانَ مَلأَ الكَهْفَ . وَرَأَيْتُ الحُزْنَ الشَّديدَ يُصيبُ الأَوْلادَ ، فَقَدْ ظَنّوا أَنَّ كُلَّ مَجْهودِهِمْ ذَهَبَ هَباءً .

قُلْتُ : « لا ، لا تَقْلَقوا ، إِنَّ الطّينَ الَّذي اسْتَخْدَمْناهُ في البِناءِ لا يَزالُ رَطْبًا ، وَعِنْدَما تُصْبِحُ المِدْخَنَةُ جافَّةً ، سَيَتَصاعَدُ مِنْها الهَواءُ السّاخِنُ ، وَيُصْبِحُ كُلُّ شَيْءٍ عَلى ما يُرامُ . أَبْقوا النّارَ مُشْتَعِلَةً مُدَّةَ يَوْمَيْنِ ، وَسَتَجِدونَ أَنَّهُ عِنْدَما تَجِفُّ المِدْخَنَةُ ، سَتَعْمَلُ عَلى نَحْوٍ سَليمٍ تَمامًا . »

وَحَدَثَ ما تَوَقَّعْتُ ، فَفي مَساءِ اليَوْمِ التّالي ، بَدَأَ الهَواءُ يَتَصاعَدُ مِنَ المِدْخَنَةِ ، وَسَحَبَ مَعَهُ كُلَّ الدُّخانِ مِنَ الكَهْفِ إلى الخارِجِ .

قُلْتُ : « وَالآنَ ، لَنْ نَقْلَقَ مِنْ مَجيءِ الشِّتاءِ . »

وَشَعَرَتْ زَوْجَتي بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ ، وَقالَتْ : « الآنَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَطْهُوَ لَكُمْ ، وَأُجَفِّفَ مَلابِسَكُمْ . وَنَسْتَطيعُ أَنْ نَجْلِسَ حَوْلَ نارٍ تُعْطينا الدِّفْءَ وَالنّورَ في أُمْسِيّاتِ الشِّتاءِ . سَنَكونُ سُعَداءَ . »

اكْتَشَفْتُ أَنَّهُ لا يَزالُ أَمامَنا أَعْمالٌ كَثيرَةٌ يَجِبُ أَنْ نُنْجِزَها ، فَالكَهْفُ كانَ بَعيدًا إلى حَدٍّ ما عَنْ بَيْتِنا فَوْقَ الشَّجَرَةِ .

وَأَثْناءَ سَيْرِنا في المَساءِ لِلْعَوْدَةِ إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ كانَ إِرْنِسْت صامِتًا ، وَقَدِ اسْتَغْرَقَ في تَفْكيرٍ عَميقٍ .

سَأَلْتُهُ : « ماذا بِكَ ، يا إِرْنِسْت ؟ »

رَدَّ : « إنَّ الطَّريقَ طَويلٌ مِنَ الكَهْفِ إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ . وَخِلالَ الشِّتاءِ ، سَيَكونُ عَلَيْنا أنْ نَسيرَ مِنَ الكَهْفِ إلى بَيْتِ الشَّجَرَةِ وَبِالعَكْسِ ، مَرَّتَيْنِ كُلَّ يَوْمٍ ؛ لإطْعامِ الحَيَواناتِ وَجَمْعِ البَيْضِ وَحَلْبِ المَعْزِ .»

قالَ فِرِتْز ضاحِكًا : « إنَّ إرْنِسْت يَخْشى البَلَلَ ، أوْ لَعَلَّهُ يَخْشى التَّعَبَ !»

أجَبْتُ : « إنَّ إرْنِسْت على حَقٍّ ؛ فالطَّريقُ طَويلٌ ، وَفي الشِّتاءِ القادِمِ سَيَكونُ لَدَيْنا عَدَدٌ أكْبَرُ مِنَ الحَيَواناتِ . هَلْ فَكَّرْتَ في ذَلِكَ ؟ لَقَدْ كانَتِ الخِرافُ صَغيرَةً عِنْدَما أحْضَرْناها مِنَ السَّفينَةِ ، لَكِنَّها سَتَلِدُ صِغارًا هَذا العامَ ، كَما أنَّ المَعْزَ سَتَلِدُ صِغارًا أيْضًا ، وَبَعْضُ الدَّجاجِ يَحْضُنُ بَيْضَهُ ، لِذَلِكَ نَتَوَقَّعُ مَزيدًا مِنَ الدَّجاجِ والبَطِّ .»

سَألَ جاك : « وَهَلْ سَيَكونُ لَدَيْنا مَزيدٌ مِنَ القُرودِ ؟»

قُلْتُ : « لا ، أعْتَقِدُ أنَّ القِرْدَ قَدْ يَهْرُبُ ، وَتُصْبِحُ لَهُ عائِلَةٌ مِنَ القُرودِ الَّتي تَعيشُ في الغابَةِ .»

قالَ جاك : « لا ، يَجِبُ أنْ يَبْقى مَعَنا .»

قالَ إرْنِسْت : « هَذا مَعْناهُ أنَّهُ عَلَيْنا أنْ نَبْنِيَ عَدَدًا كَبيرًا مِنَ الحَظائِرِ عِنْدَ بَيْتِ الشَّجَرَةِ ، لِكَيْ تُقيمَ بِها كُلُّ تِلْكَ الحَيَواناتِ .»

أجَبْتُ : « لا ، يا إرْنِسْت . بَلْ يَجِبُ أنْ نُقيمَ مَزْرَعَةً في مُنْتَصَفِ الطَّريقِ بَيْنَ الكَهْفِ والشَّجَرَةِ ، وَبِذَلِكَ تَكونُ مُلائِمَةً لَنا في الصَّيْفِ والشِّتاءِ .»

قالَ فِرِتْز : « كَما سَنَكونُ في حاجَةٍ إلى كَمِّيّاتٍ أوْفَرَ بِكَثيرٍ مِنَ الطَّعامِ .»

قُلْتُ : « حَقًا ، كَمْ كُنْتُ حَكيمًا عِنْدَما أحْضَرْتُ المِحْراثَ مِنَ السَّفينَةِ ! إنَّ الجاموسَتَيْنِ تَكْبُرانِ ، وَسَيَكونُ في اسْتِطاعَتِهِما جَرُّ المِحْراثِ ، وَكَمْ سَيُعاوِنُنا هَذا مُعاوَنَةً كَبيرَةً في إعْدادِ حُقولٍ جَديدَةٍ ، فَلا بُدَّ أنْ يَكونَ لَدَيْنا قَمْحٌ وَبَطاطِسُ وَبُقولٌ وَخَضْراواتٌ . فَهَيّا إلى العَمَلِ ، إلى العَمَلِ .»

وَهَكَذا انْهَمَكْنا في العَمَلِ ، وَقَضَيْنا صَيْفًا لَمْ نَهْدَأْ فيهِ .

وَمَلأنا مَخْزَنَنا في الكَهْفِ بِكَمِّيّاتٍ وَفيرَةٍ مِنَ اللَّحْمِ المُمَلَّحِ والسَّمَكِ المُجَفَّفِ ، وَثِمارِ جَوْزِ الهِنْدِ . وَفي نِهايَةِ العامِ قُمْنا بِاخْتِزانِ البَطاطِسِ ، ثُمَّ أقَمْنا مَخْزَنًا في المَزْرَعَةِ ، وَضَعْنا فيهِ

الحَشائِشَ الجافَّةَ ، وَأَنْواعًا أُخْرى مِنْ طَعامِ الحَيَواناتِ . كَما بَنَيْنا كوخًا صَغيرًا ، يُمْكِنُ لِشَخْصٍ مِنّا أَنْ يَبيتَ فيهِ ؛ لِيَحْرُسَ الحَيَواناتِ خِلالَ اللَّيْلِ ، وَيُبْعِدَ عَنْها الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةَ .

سَأَلَتْ زَوْجَتي : « وَما الَّذي سَنَفْعَلُهُ في أَمْرِ المَلابِسِ ؟ إِنَّ هَذِهِ المَلابِسَ الَّتي جاءَ بِها الفِتْيانُ مِنَ السَّفينَةِ قَدْ بَلِيَتْ تَقْريبًا ، وَتِلْكَ الَّتي وَجَدْناها في صُنْدوقِ البَحّارَةِ غَيْرُ صالِحَةٍ إِطْلاقًا ؛ لَقَدْ أَفْسَدَها ماءُ البَحْرِ وَجَعَلَها سَريعَةَ التَّمَزُّقِ . إِنَّها قَدْ تَنْفَعُنا عامًا آخَرَ ، لا أَكْثَرَ ، وَلا بُدَّ أَنْ أَصْنَعَ مَلابِسَ جَديدَةً .»

قالَ فِرِتْز : « كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَقومي بِصُنْعِ مَلابِسَ ؟ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَصْنَعينَها ؟ لَيْسَ لَدَيْنا إِلا خَروفانِ .»

قُلْتُ : « ثَمَّةَ نَباتاتٌ يُمْكِنُ صُنْعُ الثِّيابِ مِنْها .»

وَلَنْ أَتَحَدَّثَ عَنِ المَشاكِلِ وَالصُّعوباتِ الَّتي واجَهَتْنا لِنَصْنَعَ المَلابِسَ مِنَ النَّباتاتِ ، لَكِنَّ زَوْجَتي اسْتَطاعَتْ في النِّهايَةِ أَنْ تَصْنَعَ بِضْعَ قِطَعٍ مِنَ القُماشِ . لَمْ تَكُنْ مُتْقَنَةَ الصُّنْعِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَوْنُها أَبْيَضَ عَلى الإِطْلاقِ ، لَكِنَّ زَوْجَتي كانَتْ سَعيدَةً جِدًّا بِها ، كَما أَنَّها شَغَلَتْ وَقْتَها بِصِناعَتِها . وَلِمُواجَهَةِ الاحْتِياجاتِ العاجِلَةِ ، كانَ

الأَوْلادُ يَحْصُلونَ عَلى الجُلودِ مِنَ الحَيَواناتِ . وَلَمّا كانَ المِلْحُ قَدْ أَصْبَحَ مُتَوافِرًا لَدَيْنا ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ في اسْتِطاعَتِنا إِعْدادُ تِلْكَ الجُلودِ لِلاسْتِخْدامِ ، كَما أَصْبَحَ في اسْتِطاعَةِ زَوْجَتي أَنْ تَصْنَعَ المَلابِسَ مِنْ تِلْكَ الجُلودِ .

وَهَكَذا انْقَضى العامُ – عامُنا الثّاني عَلى الجَزيرَةِ . كانَ نُمُوُّ الأَوْلادِ مُسْتَمِرًّا ، فَأَصْبَحوا أَكْبَرَ وَأَقْوى . كانَ فِرِتْز يَقْتَرِبُ مِنَ السّادِسَةَ عَشْرَةَ ، وَإِرْنِسْت مِنَ الرّابِعَةَ عَشْرَةَ .

وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ في السَّنَواتِ المُقْبِلَةِ ، فَوَجَدْتُ أَنَّهُ سُرْعانَ ما سَيَكونُ مَعي رَجُلانِ فَتِيّانِ قَوِيّانِ ، يُقَدِّمانِ لي يَدَ المُساعَدَةِ في عَمَلِنا فَوْقَ الجَزيرَةِ .

وَلَمّا كُنْتُ أَتَقَدَّمُ في السِّنِّ ، وَقَدْ قَلَّتْ قُدْرَتي عَلى القِيامِ بِالعَمَلِ الشّاقِّ ، فَإِنَّهُ سَيَكونُ في اسْتِطاعَتِهِما أَنْ يَقوما بَدَلاً مِنّي بِالعَمَلِ الشّاقِّ . وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أُلاحِظَ أَنَّ جاك سَريعُ التَّعَلُّمِ ، كَما كانَ قادِرًا عَلى مُساعَدَةِ والِدَتِهِ مُساعَداتٍ كَبيرَةً . أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِلصَّغيرِ فَرَنْسيس فَلَمْ يُصْبِحْ بَعْدُ ذا فائِدَةٍ ، فَلَقَدْ كانَ غُلامًا صَغيرًا حَسَنَ السُّلوكِ ، لا يُسَبِّبُ لَنا إِلا مَتاعِبَ قَليلَةً .

الفصل السابع عشر

السَّنواتُ تَمُرُّ

اسْتَطَعْنا بِمُرورِ الأعْوامِ ، أنْ نُحسِّنَ بَيْتَنا فَوْقَ الشَّجرَةِ وبَيْتَنا في الكَهْفِ ؛ فَصنَعْنا سَقْفًا خَشَبِيا لِلْبَيْتِ فَوْقَ الشَّجرَةِ ، فَمَنَعْنا ماءَ المَطَرِ مِنَ التَّسرُّبِ داخِلِ البَيْتِ ، كَما حدَثَ في أوَّلِ شِتاءٍ لَنا . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَّ بَيْتُنا غَيْرَ صالحٍ لِمَوْسِمِ الأمْطارِ . كَما صَنَعْنا لَهُ سُلَّمًا مِنْ دَرَجاتٍ ، بَدَلاً مِنْ سُلَّمِ الحِبالِ . وَشَيَّدْنا غُرْفَةً أمامَ مَدْخَلِ الكَهْفِ ، لِنَجْلِسَ فيها وَنَسْتَمْتِعَ بِهَواءِ البَحْرِ وَضَوْءِ الشَّمْسِ . وَقَدْ ظَلَّ الكَهْفُ أقْرَبَ إلى العَتَمَةِ ، لَكِنَّنا اسْتَخْدَمْناهُ كَغُرَفٍ لِنَوْمِنا ، كَما أنَّ أحَدَ جَوانِبِهِ كانَ مَطْبَخَنا وَ فيهِ المِدْخَنَةُ . وَ فَتَحْنا كُوَّةً صَغيرَةً في أقْرَبِ جَوانِبِ الكَهْفِ إلى الهَواءِ الخارِجِيِّ ، لَكِنَّ هَذا العَمَلَ اسْتَلْزَمَ مِنَّا جُهْدًا شاقا .

وَ اتَّسعَتِ المَزْرَعَةُ ؛ فَكانَ عِنْدَنا الجاموسُ لِجَرِّ المِحْراثِ ، كَما

اسْتَطَعْنا أنْ نَصنَعَ عَرَبَةً ذاتَ عَجَلاتٍ خشبِيهٍ . لقد كانَتْ ثَقيلَةَ الوَزْنِ جدًّا ، لَكِنْ كانَ في اسْتِطاعَةِ الجاموسَتَيْنِ أنْ تَقوما بِجَرِّها . وَ حَصَلْنا مِنَ الجاموسَتَيْنِ على ما نَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ لَبَنٍ ، كَما نَجَحْنا في صُنْعِ حاجَتِنا مِنَ الزُّبْدِ .

وَ قَرَّرْنا ألا نَزيدَ ما عِنْدَنا مِنْ مَعْزٍ ؛ فهي حَيَواناتٌ مِتْلافَةٌ ؛ فَلَقَدْ أكَلَتِ الأشْجارَ الصَّغيرَةَ الَّتي زَرَعْناها ، وَأحْيانًا ، إذا دَخَلَتْ حُقولَ المَزْرَعَةِ ، كانَتْ تُدَمِّرُ العَمَلَ الَّذي اسْتَغْرَقَ مِنَّا أيامًا كَثيرَةً لِنَقومَ بِهِ . لَقَدْ هَرَبَتِ اثْنَتانِ مِنْها ، وَقَدْ خَشينا أنْ تَمْتَلِئَ الجَزيرَةُ كُلُّها بِالمَعزِ ، وَأنْ يَنْتُجَ عَنْ ذَلِكَ إتْلافُ كُلِّ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ شَديدَةٍ ؛ لِهَذا اسْتَخْدَمْناها كَمَصْدَرٍ لِلْحُصولِ عَلى اللَّحْمِ .

وَفي فَصْلَيِ الرَّبيعِ وَالصَّيْفِ ، كُنَّا نَحْصُلُ مِنْ دَجاجاتِنا عَلى كَمِّيَّاتٍ مِنَ البَيْضِ أكْثَرَ مِمَّا نَسْتَطيعُ أكْلَهُ . أمَّا في الشِّتاءِ ، فَكُنَّا نَحْصُلُ عَلى ما يَكْفينا فَقَطْ مِنْ بَيْضٍ . وَ وَلَدَتِ الحِمارَةُ الوَحْشِيَّةُ جَحْشًا جَميلَ الشَّكْلِ ، وَ كانَ تَدْريبُهُ أسْهَلَ مِنْ تَدْريبِ أمِّهِ . كَما أصْبَحَتْ لَدَيْنا حُقولٌ واسِعَةٌ لَها أسْوارٌ مَنيعَةٌ ، وَصارَ في اسْتِطاعَتِنا أنْ نَحْصُلَ مِنْ زِراعاتِنا عَلى كُلِّ ألوانِ الطَّعامِ الَّذي نَحْتاجُ إلَيْهِ نَحْنُ أوْ حَيَواناتُنا .

وَكـانَتْ لَدَيْنا مَشاكِلُ . وَلَعَلَّ أَسْوَأَ ما حَدَثَ تِلْكَ الغارَةُ الَّتي شَنَّتْها القُرودُ عَلى المَزْرَعَةِ ؛ فَذاتَ صَباحٍ ، عادَ جاك يَجْري وَهُوَ يَصيحُ : « أبي ، أَسْرِعْ لِتَرى ما الَّذي حَدَثَ في المَزْرَعَةِ ! »

وَأَسْرَعْتُ إلى هُناكَ ؛ لأرى كُلَّ شَيْءٍ في المَزْرَعَةِ مُتَناثِراً هُنا وَهُناكَ وَمُحَطَّماً : الأَسْوارُ قَدِ انْتُزِعَتْ مِنْ مَكانِها ، وَالنَّباتاتُ النَّامِيَةُ في الحُقولِ قَدْ أُتْلِفَتْ أَوْ اُقْتُلِعَتْ و أُلْقِيَتْ بَعيداً . كانَ الأَمْرُ كَأَنَّ جَيْشاً مِنَ الأَعْداءِ قَدْ أَغارَ عَلى المَكانِ ، وَحَطَّمَ كُلَّ شَيْءٍ .

قُلْتُ : « هَذا أَمْرٌ لا يَجِبُ أَنْ يَتَكَرَّرَ ثانِيَةً أَبَداً . »

وَكـانَ كَلْبانا طِرْك وَفلورا قَدْ أَنْجَبا عَدَداً مِنَ الصِّغارِ ، بَلَغَتِ السِّنَّ الَّتي يُمْكِنُ فيها تَدْريبُها . وَاتَّفَقْنا عَلى أَنْ يَنامَ فِرِتْز أَوْ إِرْنِسْت أَوْ أَنا في المَزْرَعَةِ ، وَمَعَهُ الكِلابُ . وَ دَرَّبْنا الكِلابَ عَلى مُطارَدَةِ أَيِّ قِرْدٍ عِنْدَما تَراهُ . وَ قَدْ عادَتِ القِرَدَةُ مَرَّةً أُخْرى أَوْ مَرَّتَيْنِ ، و كُنَّا نَطْرُدُها وَبَعْدَ فَتْرَةٍ ، كَفَّتْ عَنْ الاقْتِرابِ مِنْ مَزْرَعَتِنا .

وَعِنْدَما كُنْتُ أَتَأَمَّلُ نُمُوَّ أَبْنائي ، كُنْتُ أَشْعُرُ بِسَعادَةٍ بالِغَةٍ . كانَتْ أَجْسامُهُمْ أَكْبَرَ وَأَقْوى كَثيراً مِمَّا لَوْ كانوا في أورُبَّا . كانَ فِرِتْز فارِعًا وَقَوِيا ، وَلَمْ يَكُنْ إِرْنِسْت في مِثْلِ حَجْمِهِ ، لكِنَّهُ كانَ أَكْثَرَ هُدوءاً ، وَيَنْتابُهُ الكَسَلُ في بَعْضِ الأَحْيانِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَديدَ الكَسَلِ كَما كانَ في طُفولَتِهِ . كانَ يَكْتُبُ أَسْماءَ كُلِّ النَّباتاتِ المَوْجودَةِ عَلى الجَزيرَةِ ، كَما كانَ يَرْسُمُ صُوَراً لَها . وَقَدْ صَنَعَ بَعْضَ الأَوْراقِ مِنْ أَلْيافِ سيقانِ نَباتاتٍ طَويلَةٍ ، مِثْلَما فَعَلَ المِصْرِيّونَ القُدَماءُ مُنْذُ آلافِ السِّنينَ . وَكانَ يُمْكِنُ الاعْتِمادُ عَلى فرانْسيس أَكْثَرَ مِنْ جاك ، رَغْمَ أَنَّ جاك كانَ يَتَعاوَنُ إِلى حَدٍّ كَبيرٍ في أَعْمالِ المَزْرَعَةِ ، أَمّا فرنْسيس فَكانَ يُساعِدُ أُمَّهُ .

الفصل الثامن عشر

زَوْرَقُ الكانو

ذاتَ صَباحٍ ، قالَ لي فرِتْز : « أودُّ الذَّهابَ بِنَفْسي لأعْرِفَ مَزيداً مِنَ المَعْلوماتِ عَنْ تِلْكَ الأجْزاءِ مِنَ الجزيرَةِ الَّتي لَمْ نُشاهِدْها بَعْدُ . إنَّ زَوْرَقَ السَّفينَةِ أثْقَلُ مِمّا يُمْكِنُ لِشَخْصٍ واحِدٍ أنْ يُبْحِرَ بِهِ . أريدُ أنْ أصْنَعَ زَوْرَقًا خَفيفاً مِمّا يُسَمّى «« كانو »» . »

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، وَأعْتَقِدُ أنَّهُ يُمْكِنُنا صُنْعُ واحِدٍ مِنْ هَذهِ الزَّوارِقِ . لَقَدْ رَأيْتُ زَوارِقَ كانو مَصْنوعَةً مِنْ لِحاءِ الشَّجَرِ . دَعْنا نَرَ كَيْفَ أسْتَطيعُ مُعاوَنَتَكَ في صُنْعِهِ . »

وَعَثَرْنا عَلى شَجَرَةٍ ضَخْمَةٍ ، لَها لِحاءٌ قَوِيٌّ يُغَطّي خَشَبَها ، فَقَطَعْتُ حَلْقَةً حَوْلَ اللِّحاءِ عِنْدَ أسْفَلِ الجِذْعِ ، ثُمَّ ثَبَّتْنا سُلَّماً مِنَ الحِبالِ في أحَدِ الأغْصانِ . وَطَلَبْتُ مِنْ فرِتز أنْ يَقْطَعَ حَلْقَةً أخْرى عَلى ارْتِفاعِ سِتَّةِ أمْتارٍ مِنَ المَكانِ الأوَّلِ ، ثُمَّ صَنَعْتُ شَقا في اللِّحاءِ

بِطولِ المَسافَةِ بَيْنَ الدّائِرَتَيْنِ . وَبِحِرْصٍ شَديدٍ انْتَزَعْنا اللِّحاءَ مِنْ حَوْلِ الشَّجَرَةِ ، فَقَدْ كُنّا نَخْشى أنْ يَتَهَشَّمَ وَنَحْنُ نَنْزِعُهُ ، لكِنْ لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ مِنْ هَذا .

وَأخيراً سَقَطَ اللِّحاءُ مِنْ حَوْلِ الشَّجَرَةِ قِطْعَةً واحِدَةً . وَأخَذْنا قِطَعاً مِنْ الخَيْزُرانِ وَالقَصَبِ ، وَثَبَّتْناها إلى اللِّحاءِ ، حَتّى يَتَّخِذَ الشَّكْلَ المُناسِبَ ، ثُمَّ ضَمَمْنا الجانِبَيْنِ مَعًا عِنْدَ كُلِّ طَرَفٍ مِنْ طَرَفَي الزَّوْرَقِ ، وَثَبَّتْناهُما مَعًا . وَعَثَرْنا على عُصارَةٍ لَزِجَةٍ ، حَصَلْنا عَلَيْها مِنْ شَجَرَةٍ بِعَيْنِها . وَكانَتْ تِلْكَ العُصارَةُ تَجِفُّ سَريعاً ، فَاسْتَخْدَمْناها لِنَمْلأَ كُلَّ الشُّقوقِ الَّتي يُمْكِنُ أنْ يَتَسَرَّبَ مِنْها الماءُ .

قالَ فرِتز : « عِنْدَما يَشُقُّ الزَّوْرَقُ الماءَ ، فَإنَّ الماءَ سَوْفَ يَتَسَرَّبُ إلَيْهِ مِنْ المُقَدِّمَةِ ، وَمِنَ المُؤَخِّرَةِ أيْضًا . وَأعْتَقِدُ أنَّهُ يَجِبُ أنْ نُغَطّي المُقَدِّمَةَ وَالمُؤَخِّرَةَ ، وَلا نَتْرُكُ إلا مَكاناً في الوَسَطِ كَيْ أجْلِسَ فيهِ . »

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، يَجِبُ أنْ نَضَعَ غِطاءً خَفيفًا لِنَمْنَعَ الماءَ مِنَ التَّسَرُّبِ إلى الزَّوْرَقِ . »

كَذَلِكَ صَنَعْنا مِجْدافًا يَنْتَهي طَرَفاه بِمِساحَةٍ مُسَطَّحَةٍ . وَعِنْدَما انْتَهَيْنا مِنْ صُنْعِ زَوْرَقِ الكانو ، تَرَكْناهُ عِدَّةَ أيّامٍ لِيَجِفَّ ، ثُمَّ وَضَعْناهُ في الماءِ لِتَجْرِبَتِهِ . وَفي البِدايَةِ كانَ الزَّوْرَقُ يَنْقَلِبُ رَأْسًا عَلى

عَقِبٍ ، وَكانَ فِرتز يَسْقُطُ مَعَهُ في الماءِ .

قالَ فِرتْز : « إنَّ الأمْرَ صَعْبٌ . وَقَدْ لا أَسْتَطيعُ الذَّهابَ بَعيداً إذا كانَتْ هُناكَ أمْواجٌ كَثيرَةٌ .»

قُلْتُ : « لا ، إنَّ زَوْرَقَ الكانو صالِحٌ جِدًّا لِلإبْحارِ ، سَواءٌ كانَ البَحْرُ هادِئًا أوِ الأمْواجُ عالِيَةً ، لكِنْ يَجِبُ أنْ نَقومَ بِإضافَةِ شَيْءٍ آخَرَ لِمُواجَهَةِ الأمْواجِ . أعْتَقِدُ أنَّهُ يَجِبُ تَزْويدُ الزَّوْرَقِ بِما يُسَمّى « الطَّوْف الخارِجِيّ » . إنَّهُ يَتَكَوَّنُ مِنْ عَمودَيْنِ طَويلَيْنِ نُثَبِّتُهُما في القارِبِ ، وَفي نِهايَتِهِما نُثَبِّتُ طَوْفًا يُشْبِهُ الزَّوْرَقَ الصَّغيرَ . إنَّ هذا سَيَمْنَعُ انْقِلابَ القارِبِ وَسْطَ الأمْواجِ .»

قالَ فِرتْز : « قَدْ يُبْطِئُ هذا سَيْرَ القارِبِ ، لكِنَّهُ سَيُعْطي أمانًا أكْثَرَ . وَأظُنُّ أنَّهُ مَعَ اسْتِعْمالِ الطَّوْفِ الخارِجِيِّ ، سَيُصْبِحُ في إمْكاني أنْ أَسْتَخْدِمَ شِراعًا لِزَوْرَقي ، فَإذا تَعَرَّضَ الزَّوْرَقُ لِلانْقِلابِ ، ألْقي بِثِقْلي ناحِيَةَ الطَّوْفِ الخارِجِيِّ ، فَأُعيدُ التَّوازُنَ إلى القارِبِ .»

وَقَدْ نَفَّذْنا هذِهِ الاقْتِراحاتِ . وَبَعْدَ عِدَّةِ أيّامٍ أصْبَحَ في اسْتِطاعَةِ فِرتز أنْ يَسْتَخْدِمَ شِراعًا صَغيراً في زَوْرَقِهِ ، كَما اسْتَطاعَ أنْ يُبْحِرَ آمِنًا بَيْنَ أمْواجٍ عالِيَةٍ .

الفصل التاسع عشر

جيني

ذاتَ يَوْمٍ ، انْطَلَقَ فِرتْز بِزَوْرَقِهِ الصَّغيرِ ، وَغابَ عَنّا طَوالَ النَّهارِ . وَأقْبَلَ المَساءُ وَلَمْ يَرْجِعْ ، فَقَلِقَتْ زَوْجَتي ؛ فَقَدْ خَشِيَتْ أنْ يَكونَ ثَمَّ مَكْروهٌ قَدْ أصابَهُ. وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، صَعِدْنا إلى قِمَّةِ تَلٍّ ، لكِنَّنا لَمْ نَرَ أيَّ أثَرٍ لَهُ . وَ فَجْأةً قالَ إرْنِسْت ، وَهُوَ يُشيرُ بِإصْبَعِهِ : « انْظُروا إلى ذَلِكَ الشَّيْءِ الأسْوَدِ البَعيدِ .»

وَنَظَرْنا ، وَعِنْدَما اقْتَرَبَ ذَلِكَ الشَّيْءُ ، تَبَيَّنّا أنَّهُ فِرتْز في زَوْرَقِهِ ، فَأسْرَعْنا كُلُّنا لِمُلاقاتِهِ . وَأثْناءَ تَناوُلِهِ الطَّعامَ حَكَى لَنا حِكايَتَهُ .

قالَ : « كُنْتُ أرْغَبُ دائِمًا في مَعْرِفَةِ المَزيدِ عَنِ الأرْضِ الَّتي تَقَعُ في الغَرْبِ . إنَّنا لَمْ نَبْتَعِدْ قَطُّ عَنِ المَكانِ الَّذي نَزَلْنا فيهِ إلى الشّاطِئِ مُنْذُ سَنواتٍ مَضَتْ ؛ لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أنْ أذْهَبَ وَأسْتَكْشِفَ . لَقَدْ أخَذْتُ مَعي بُنْدُقِيَّتي وَبَعْضَ البارودِ ، الَّذي وَضَعْتُهُ في حَقيبَةٍ

لأَحْتَفِظَ بِهِ جافًا ، كَما أَخَذْتُ خَيْطَ صَيْدٍ وَسِكّينًا . وَ وَصَلْتُ إِلى المَكانِ الَّذي وَجَدْنا فيهِ الأَصْدافَ عَقِبَ وُصولِنا إِلى الشّاطِئِ ، فَالْتَقَطْتُ واحِدَةً وَفَتَحْتُها ، وَفي داخِلِها وَجَدْتُ هَذِهِ .»

وَفَتَحَ قَبْضَتَهُ ، فَرَأَيْنا فيها لُؤْلُؤَةً كَبيرَةً ، ثُمَّ أَضافَ : « وَفَتَحْتُ عَدَدًا غَيْرَها ، فَوَجَدْتُ كَثيرًا مِنَ اللآلِئِ . اُنْظُروا !» وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ ما يَمْلأُ قَبْضَةَ اليَدِ مِنَ اللآلِئِ الجَميلَةِ .

قالَ جاك : « يُمْكِنُ أَنْ نَصْنَعَ عِقْدًا مِنْها لأُمِّنا .»

قالَتْ زَوْجَتي : « لا ، لا ، لَسْتُ أُريدُها . ماذا يُمْكِنُ أَنْ أَفْعَلَ بِعِقْدٍ مِنَ اللآلِئِ ؟»

قُلْتُ : « ذاتَ يَوْمٍ ، قَدْ يَرْغَبُ أَحَدُكُمْ في العَوْدَةِ إِلى أوروبّا ، وَعِنْدَئِذٍ سَيَحْتاجُ إِلى نُقودٍ . وَلَعَلَّ سَفينَةً قَدْ تَأْتي ، فَتَعودَ بِكُمْ إِلى هُناكَ . وَهَذِهِ ثَرْوَةٌ ضَخْمَةٌ ، سَوْفَ نَحْتَفِظُ بِها في مَكانٍ أَمينٍ .»

قالَ فِرِتْز : « إِنَّني لَمْ أُخْبِرْكُمْ بَعْدُ بِأَهَمِّ جُزْءٍ في قِصَّتي ؛ لَقَدْ تَقَدَّمْتُ إِلى مِنْطَقَةٍ مِنَ الجَزيرَةِ لَمْ نَذْهَبْ إِلَيْها مِنْ قَبْلُ ، وَفي المَساءِ جَلَسْتُ عَلى الشّاطِئِ أَتَناوَلُ طَعامًا . وَفيما أَنا جالِسٌ هُناكَ ، رَفْرَفَ فَوْقي طائِرٌ كَبيرٌ ، كانَ يَطيرُ بِصُعوبَةٍ وَبُطْءٍ شَديدَيْنِ ، وَقَدْ أَطْلَقْتُ

النّارَ عَلَيْهِ . وَعِنْدَما أَمْسَكْتُهُ اكْتَشَفْتُ لِماذا كانَ يَطيرُ بِبُطْءٍ ؛ كانَ مُصابًا في جَناحِهِ . وَقَدْ وَجَدْتُ مَعَهُ شَيْئًا غَريبًا جِدًّا .»

وَعَرَضَ عَلَيْنا قِطْعَةَ قُماشٍ صَغيرَةً عَلَيْها كِتابَةٌ ، وَقالَ : « كانَتْ هَذِهِ مَرْبوطَةً إِلى ساقِهِ .»

نَظَرْتُ إِلى الكِتابَةِ ، وَقَرَأْتُ : « النَّجْدَةَ ! ثَمَّ بَحّارٌ عَلى الجَزيرَةِ المُدَخِّنَةِ .» ثُمَّ قُلْتُ : « يَبْدو كَأَنَّها كُتِبَتْ بِالدَّمِ !»

قالَ فِرِتْز : « هَذا صَحيحٌ ، لَكِنْ أَيْنَ تِلْكَ الجَزيرَةُ المُدَخِّنَةُ ؟ لَقَدْ صَعِدْتُ فَوْقَ التَّلِّ الَّذي كُنْتُ أَجْلِسُ بِجِوارِهِ ، وَنَظَرْتُ إِلى البَحْرِ الواسِعِ ، وَهُناكَ ، بَعيدًا ، في عُرْضِ البَحْرِ ، رَأَيْتُ دُخانًا ضَعيفًا يَصْعَدُ إِلى السَّماءِ ، كانَ يَصْعَدُ مِنْ جَزيرَةٍ صَغيرَةٍ .»

تَوَقَّفَ فِرِتْز ، ثُمَّ أَضافَ : « يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ لأَسْحَبَ الزَّوْرَقَ ، وَأَضَعَهُ فَوْقَ الرِّمالِ ؛ فَإِنَّ الرّيحَ تَشْتَدُّ .»

وَانْصَرَفَ فَتَبِعْتُهُ . لَقَدْ لاحَظْتُ أَنَّ لَدَيْهِ شَيْئًا آخَرَ لَمْ يَقُلْهُ ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يُريدُ الإِفْصاحَ عَنْهُ في حُضورِ الباقينَ . وَكُنْتُ مُصيبًا في تَفْكيري . وَتَعاوَنّا في سَحْبِ زَوْرَقِ الكانو إِلى رِمالِ الشّاطِئِ ، ثُمَّ جَلَسْنا حَيْثُ حَكى بَقِيَّةَ قِصَّتِهِ .

قالَ : « لَقَدْ أبْحَرْتُ بِقارِبي إلى الجزيرَةِ ، وَصَعِدْتُ إلى أكْثَرِ أماكِنِها ارْتِفاعًا ، حَيْثُ وَجَدْتُ غابَةً صَغيرَةً ، عَثَرْتُ فيها عَلى كوخٍ صَغيرٍ مَصْنوعٍ مِنَ الأغْصانِ . وَأمامَ الكوخِ كانَتْ ثَمَّةَ نارٌ عَلَيْها أسْماكٌ يَتِمُّ طَهْيُها في صَدَفَةٍ كَبيرَةٍ ، فَتَوارَيْتُ خَلْفَ شَجَرَةٍ ، وَانْتَظَرْتُ . وَعِنْدَئِذٍ رَأيْتُ شَخْصًا يَرْتَدي مِعْطَفَ ضابِطِ سَفينَةٍ ، يَخْرُجُ مِنَ الكوخِ ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ إلى النّارِ لِتَرى ما إذا كانَ السَّمَكُ قَدْ نَضِجَ . وَعِنْدَئِذٍ خَرَجْتُ مِنْ مَخْبَئي ، فَاسْتَدارَتْ نَحْوي .»

قُلْتُ : « إنَّكَ تَقولُ اتَّجَهَتْ وَاسْتَدارَتْ ، أ تَتَحَدَّثُ عَنْ أنْثى ؟»

قالَ فِرِتْز : « نَعَمْ ، لَقَدْ كانَتْ شابَّةً صَغيرَةً . وَلِكَيْ لا تَخافَ ، طَمْأنْتُها ، وَأخْبَرْتُها أنَّ والِدي وَ والِدَتي وَإخْوَتي يَعيشونَ في مَأوًى ، يُمْكِنُ الوُصولُ إلَيْهِ بَعْدَ سَفَرِ يَوْمٍ واحِدٍ ، وَيُمْكِنُهُمْ أنْ يَحْضُروا لِيَصْطَحِبوها مَعَهُمْ .»

قُلْتُ : « مِنَ المُؤَكَّدِ أنَّنا سَنَفْعَلُ ذَلِكَ . وَلَكِنْ أخْبِرْني بِالمَزيدِ عَنْها .»

« والِدُها هُوَ السّير « وليام مونتروز » ، وَهُوَ ضابِطٌ في جَيْشِ الهِنْدِ . وَقَدْ ماتَتْ والِدَتُها عِنْدَ وِلادَتِها . وَكانَ والِدُها عائِدًا مَعَ رِجالِهِ في سَفينَةٍ إلى إنْجِلْترا ؛ لِذَلِكَ اضْطُرَّتْ « جيني » أنْ تُسافِرَ

في سَفينَةٍ أخرى . وَقَدْ تَحَطَّمَتْ تِلْكَ السَّفينَةُ أثْناءَ عاصِفَةٍ مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ عامٍ ، فَغادَرَتْها في زَوْرَقٍ مَعَ أحَدِ ضُبّاطِ السَّفينَةِ وَبَعْضِ البَحّارَةِ . وَلَقَدْ أعْطاها الضّابِطُ مِعْطَفَهُ ، كَما أعْطاها مِنْظارَهُ المُقَرِّبَ ، وَطَلَبَ مِنْها اسْتِخْدامَهُ لِلْبَحْثِ عَنْ أيَّةِ سَفينَةٍ أخْرى أوْ عَنْ يابِسَةٍ . ثُمَّ هَبَّتْ عاصِفَةٌ أخْرى ، وَارْتَفَعَتْ مَوْجَةٌ عاتِيَةٌ فَوْقَ الزَّوْرَقِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ لَمْ تَدْرِ ماذا حَدَثَ . وَعِنْدَما فَتَحَتْ عَيْنَيْها ، وَجَدَتْ نَفْسَها فَوْقَ تِلْكَ الجزيرَةِ الصَّغيرَةِ .»

تَساءَلْتُ: « كَيْفَ اسْتَطاعَتْ أنْ تَعيشَ هُناكَ أكْثَرَ مِنْ عامٍ ؟»

أجابَ : « لَقَدْ سَألْتُها عَنْ ذَلِكَ . إنَّ لَدَيْها أصْدافًا ، كَما كانَتْ هُناكَ ثِمارُ جَوْزِ الهِنْدِ عَلى الأشْجارِ . لَقَدْ صَنَعَتْ خَيْطًا لِلصَّيْدِ مِنْ شَعْرِها ، وَمِنْ دَبّوسٍ أخَذَتْهُ مِنْ مَلابِسِها ، وَاسْتَطاعَتْ أنْ تَصيدَ سَمَكًا صَغيرًا . وَاسْتَخْدَمَتْ عَدَسَةً مِنْ عَدَساتِ المِنْظارِ لإشْعالِ النّارِ ، عَنْ طَريقِ تَرْكيزِ أشِعَّةِ الشَّمْسِ عَلى الأغْصانِ الجافَّةِ .

« وَصَنَعَتْ قَفَصًا لِلطُّيورِ مِنْ الخَيْزُرانِ ، لَكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَصيدَ إلا بَعْضَ الطُّيورِ الصَّغيرَةِ . أمّا الطّائِرُ الكَبيرُ الَّذي اصْطَدْتُهُ أنا ، فَقَدْ كانَ مُصابًا في جَناحِهِ ، وَسَقَطَ فَوْقَ جَزيرَتِها ، فَرَبَطَتْ إلى ساقِهِ تِلْكَ القِطْعَةَ مِنَ القُماشِ الَّتي تَطْلُبُ فيها النَّجْدَةَ . وَهِيَ

تَرْجو أنْ يَتمكّنَ شَخصٌ مِنَ العثورِ عَلَيْها .»

قُلْتُ : « وبتَدْبيرٍ مِنَ اللهِ ، وَصَلَتِ الرِّسالَةُ إلَيْكَ .»

قالَ فِرِتْز : « هَذا صَحيحٌ . وَما إنْ سَمِعْتُ قِصَّتَها ، حَتّى شَرَعْتُ في العَوْدَةِ فَوْراً . وَلَمْ يَكُنْ في اسْتِطاعَتي أنْ أقْطَعَ طَريقَ العَوْدَةِ كُلَّهُ في الوَقْتِ الَّذي بَقِيَ مِنَ اليَوْمِ ، لِذَلِكَ قَضَيْتُ اللَّيْلَ نائِمًا عَلى الشّاطِئِ ، ثُمَّ اسْتَأنَفْتُ رِحْلَتي مَعَ ظُهورِ أوَّلِ ضَوْءٍ . تُرى هَلْ نَسْتَطيعُ الذَّهابَ اليَوْمَ إلى جيني ؟»

قُلْتُ : « يُمْكِنُنا ، إذا بَدَأنا رِحْلَتَنا في الحالِ .»

عُدْتُ ، وَأخْبَرْتُ زَوْجَتي بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْ جيني ، وَطَلَبْتُ مِنْها أنْ تُعِدَّ كُلَّ شَيْءٍ لاسْتِقْبالِها . وَأخَذْنا مَعَنا طَعامًا يَكْفي يَوْمًا ، ثُمَّ أبْحَرْتُ أنا وَفِرِتْز وَ إرْنِسْت في زَوْرَقٍ .

كانَتْ جيني تَقِفُ عَلى الشّاطِئِ ، تُلَوِّحُ لَنا وَنَحْنُ نَقْتَرِبُ مِنَ الجَزيرَةِ . وَعِنْدَما نَزَلْنا مِنْ زَوْرَقِنا إلى الشّاطِئِ ، ألْقَتْ بِذِراعَيْها حَوْلَ عُنُقي ، وَقَدْ مَنَعَتْها الدُّموعُ مِنَ النُّطْقِ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ .

وَأثْناءَ عَوْدَتِنا ، كانَ فِرِتْز يُشيرُ إلى بَعْضِ الأماكِنِ الَّتي نَمُرُّ بِها ، وَيَقولُ : « في هَذا المَكانِ ، سَقَطَ الطّائِرُ الَّذي كانَ يَحْمِلُ

الرِّسالَةَ ، وَهَذا هُوَ المَكانُ الَّذي وَجَدْتُ فيهِ كَثيراً مِنَ اللآلِئِ ، وَعَلى هَذِهِ الصُّخورِ تَحَطَّمَتْ سَفينَتُنا ، وَقَدْ أقَمْنا خَيْمَتَنا في هَذا المَكانِ ، وَهُنا مَصَبُّ النَّهْرِ . اُنْظُري إلى مَجْرى النَّهْرِ ! يَسْهُلُ عَلَيْكِ أنْ تُشاهِدي الجِسْرَ ، لَقَدْ حَطَّمَتْهُ المِياهُ في شِتائِنا الأوَّلِ ، لَكِنَّنا أقَمْنا جِسْراً أقْوى . وَهُناكَ ... » وَكادَ أنْ يَقولَ : « وَ هُناكَ بَيْتُ الشَّجَرَةِ .» لَكِنَّهُ شاهَدَ أمَّهُ وَ شَقيقَيْهِ يَنْتَظِرونَ عَلى الشّاطِئِ ؛ لِيَسْتَقْبِلوا جيني .

وَاصْطَحَبَتْها زَوْجَتي وَهِيَ تَقولُ لَها : « سَأعْطيكِ مَلابِسَ تُشْبِهُ تَماماً ما يَرْتَديهِ أبْنائي ، فَهَذا هُوَ كُلُّ ما لَدَيْنا مِنْ مَلابِسَ .»

وَبَعْدَ أنِ اغْتَسَلَتْ جيني ، وَارْتَدَتْ مَلابِسَ البَحّارَةِ ، انْضَمَّتْ إلَيْنا ، وَتَناوَلْنا غَداءً فاخِراً . وَصَنَعَ جاك تاجًا مِنَ الأزْهارِ ، وَضَعَهُ فَوْقَ رَأسِها .

وَقَدْ ظَنَّ الفِتْيانُ أنَّ بِاسْتِطاعَتِهِمْ تَدْريبَ جيني عَلى أشْياءَ كَثيرَةٍ ، لَكِنَّها كانَتْ تُجيدُ التَّصْويبَ أفْضَلَ مِنْهُمْ جَميعًا .

قالَتْ : « لَقَدْ عَلَّمَني والِدي الصَّيْدَ في الهِنْدِ .»

كَما كانَتْ جِدَّ ماهِرَةٍ في صَيْدِ السَّمَكِ ، وَكانَ في اسْتِطاعَتِها

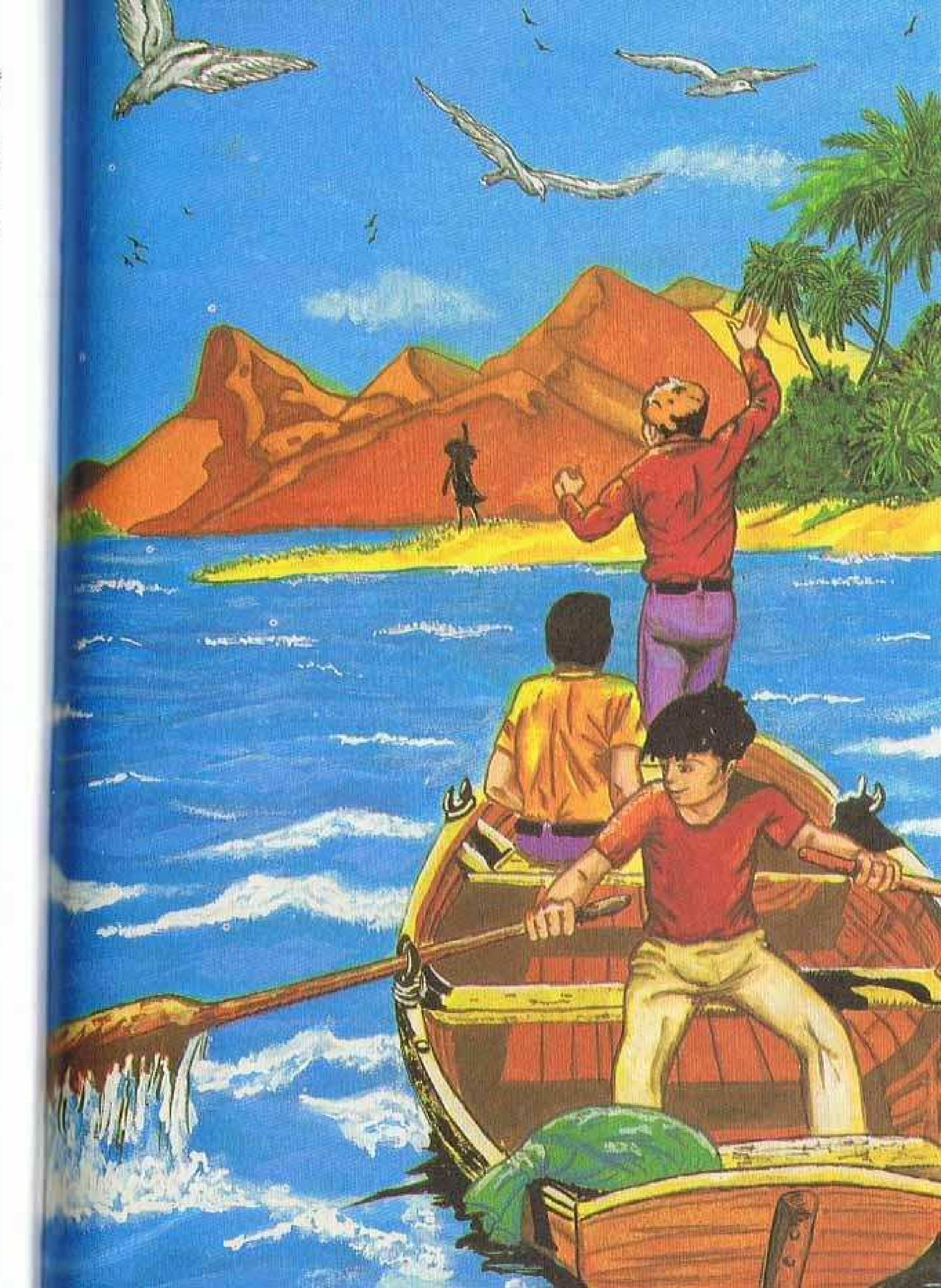
أنْ تُخْبِرَ إرْنسْت بِالأسْماءِ الحقيقِيَّةِ لِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ النَّباتاتِ ، وَقالَتْ : « لَقَدْ تَعَلَّمْتُ كُلَّ هَذا في المَدْرَسَةِ .» وَسَرْعانَ ما رَبَطَتْ بَيْنَهُمْ صَداقَةٌ مَتينَةٌ .

لَمْ تَتَوَقَّفْ جيني عَنِ التَّفْكيرِ في والِدِها ، قالَتْ : « إذا كانَ قَدْ تَمَّ إنْقاذُ بَعْضِ بَحّارَةِ السَّفينَةِ الَّتي كُنْتُ عَلَيْها ، فَسَيُخْبِرونَ والِدي أَيْنَ تَحَطَّمَتِ السَّفينَةُ ، وَسَيَطْلُبُ إرْسالَ سُفُنٍ لِلْبَحْثِ عَنّي .»

عِنْدَئِذٍ قالَ فرِتْز : « إذا أَتَتْ سَفينَةٌ ، فَإنَّ الرُّبّانَ قَدْ يُطْلِقُ قَذيفَةَ مِدْفَعٍ . وَإذا اسْتَطَعْنا أَنْ نُجيبَهُ فَسَيَعْرِفُ مَكانَنا . لَقَدْ كانَ هُناكَ مِدْفَعٌ صَغيرٌ فَوْقَ السَّفينَةِ الَّتي تَحَطَّمَتْ بِنا ، وَلَعَلَّنا نَسْتَطيعُ اسْتِخْراجَهُ مِنَ القاعِ ، مِنَ المَكانِ الَّذي تَحَطَّمَتْ عِنْدَهُ سَفينَتُنا فَوْقَ الصُّخورِ .»

وَبَحَثَ الفِتْيانُ عَنِ المِدْفَعِ . وَ اسْتَطاعوا نَقْلَهُ بِصُعوبَةٍ إلى تَلٍّ صَخْرِيٍّ مُرْتَفِعٍ ، قُرْبَ الكَهْفِ . ثُمَّ وَضَعوا كَمِّيَّةً كَبيرَةً مِنَ الأعْشابِ بِجِوارِهِ ؛ لِيُشْعِلوا نارًا يَنْبَعِثُ مِنْها دُخانٌ كَثيفٌ .

قالَتْ جيني : « أنا واثِقَةٌ بِأَنَّ سَفينَةً سَتَأْتي ذاتَ يَوْمٍ لِتُعيدَني إلى والِدي . إنَّني سَعيدَةٌ جِدًّا وَأنا مَعَكُمْ ، لَكِنْ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ جِدُّ



حَزينٍ ؛ فَهُوَ لا يَدْري ما إذا كُنْتُ حَيَّةً أَوْ مَيِّتَةً ، وَهُوَ لا يَعْرِفُ حَقيقَةَ ما حَدَثَ لي .»

وَتَوالَتِ الأَسابيعُ ، وَأَعْقَبَتْها الشُّهورُ . وَانْقَضى الصَّيْفُ ، وَبَدَأَتْ أَمْطارُ الشِّتاءِ . وَعاشَ فِرِتْز وَإِرْنِسْت في المَزْرَعَةِ ، يَحْميانِها مِنَ القُرودِ وَالحَيَواناتِ البَرِّيَّةِ . أَمّا أَنا وَزَوْجَتي وَجيني وَالابْنانِ الصَّغيرانِ ، فَأَقَمْنا في الكَهْفِ .

وَانْقَضى مَوْسِمُ الأَمْطارِ ، وَأَصْبَحَتِ الحَشائِشُ كَثيفَةً خَضْراءَ ، وَامْتَلأَتِ الغاباتُ بِالأَزْهارِ .

وَذاتَ صَباحٍ ، خَرَجَ فِرِتْز مُبَكِّرًا في زَوْرَقِ الكانو ، لِيَصيدَ سَمَكًا لِلْغَداءِ . لكِنَّنا رَأَيْناهُ يَعودُ بِالزَّوْرَقِ إِلى الشّاطِئِ .

صاحَ : « أَسْرِعوا ! أَسْرِعوا ! المِدْفَعُ ! هُناكَ سَفينَةٌ !»

وَأَسْرَعْنا نَجْري إِلى الصَّخْرَةِ المُرْتَفِعَةِ ، وَأَطْلَقْنا المِدْفَعَ . وَأَشْعَلَ إِرْنِسْت النّارَ في الخَشَبِ ؛ لِيَتَصاعَدَ الدُّخانُ .

عِنْدَئِذٍ دَوّى صَوْتُ طَلْقَةٍ أُخْرى تُجيبُ طَلْقَتَنا . وَانْتَظَرْنا ، ثُمَّ أَطْلَقْنا طَلْقَةً ثانِيَةً . وَجاءَتِ الإِجابَةُ أَعْلى صَوْتًا ، وَأَكْثَرَ قُرْبًا .

وَ شاهَدْنا زَوْرَقًا يَقْتَرِبُ مِنَ الشّاطِئِ ، فَجَرَيْنا لِمُلاقاتِهِ . وَنَزَلَ

مِنْهُ ضابِطٌ ، وَقالَ : « أَنا ليتلتون ، رُبّانُ السَّفينَةِ ‹‹ يونيكورْن ›› . إِنَّني آمُلُ في العُثورِ عَلى الآنِسَةِ جيني مونتروز فَوْقَ واحِدَةٍ مِنْ هذِهِ الجُزُرِ . لَقَدْ قالَ لَنا بَعْضُ بَحّارَةِ السَّفينَةِ الَّتي كانَتْ تُسافِرُ عَلَيْها إِنَّ السَّفينَةَ قَدْ فُقِدَتْ في مَكانٍ قَريبٍ مِنْ هُنا .»

قُلْتُ : « هَذا صَحيحٌ ، وَالآنِسَةُ جيني سالِمَةٌ مَعَنا هُنا .»

نَظَرَ الضّابِطُ يَتَفَرَّسُني أَنا وَأُسْرَتي ، وَإِلى جيني وَهِيَ تَرْتَدي مَلابِسَ البَحّارَةِ ، وَقالَ : « وَلكِنْ ... »

وَأَخَذْتُ أُعَرِّفُهُ بِنَفْسي ، قُلْتُ : « هَذِهِ زَوْجَتي ، وَهؤلاءِ أَبْنائي : فِرِتْز ، وَ إِرْنِسْت ، وَجاك ، وَ فرانْسيس ، وَهَذِهِ هِيَ جيني ، جيني عَزيزَتُنا ، الَّتي أَصْبَحَتْ واحِدَةً مِنْ أُسْرَتِنا ، تَمامًا مِثْلَ أَيِّ فَرْدٍ مِنْ أَبْنائي .»

الفصل العشرون

الخاتِمَةُ

أكْتُبُ هَذا الفصْلَ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّجَنِ .

إنَّ زَوْرَقَ السَّفينَةِ « يونيكورن » يَنْتَظِرُ لِيَأخُذَ هَذِهِ القِصَّةَ عَنْ حَياتِنا هُنا إلى إنْجِلْترا ، حَيْثُ يُمْكِنُ أنْ تُنْشَرَ في كِتابٍ ، وَسَيَعْرِفُ النّاسُ الكَثيرَ عَنْ جَزيرَتِنا الجَميلَةِ . أمّا هَؤلاءِ الَّذينَ يُحِبّونَ العَيْشَ في سَلامٍ ، وَسْطَ هَذِهِ الطَّبيعَةِ البَسيطَةِ الَّتي أحاطَتْ حَياتَنا بِمِثْلِ هَذِهِ السَّعادَةِ ، فَإنَّهُمْ قَدْ يَرْغَبونَ في مُشارَكَتِنا حَياتَنا .

وَسَأَلْتُ أبْنائي عَمّا إذا كانوا يَرْغَبونَ في العَوْدَةِ إلى أورُبّا ، أوِ البَقاءِ هُنا ، فَقالَ إرْنِسْت : « أنا أرْغَبُ في البَقاءِ ، سَأَتَعَلَّمُ المَزيدَ عَنِ النَّباتاتِ ، لَكِنَّ الرُّبّانَ يَجِبُ أنْ يُرْسِلَ لي كُتُبًا .»

أمّا جاك وَ فرانْسيس ، فَكانا أصْغَرَ مِنْ أنْ يَتْرُكانا .

وَالْتَفَتُّ إلى فِرِتْز قائِلاً : « وَأنْتَ ، يا فِرِتْز ، هَلْ تَرْغَبُ في العَوْدَةِ إلى أورُبّا ؟»

وَأمْسَكَ فِرِتْز بِيَدِ جيني ، وَقالَ : « نَعَمْ ، نَحْنُ نُريدُ العَوْدَةَ الآنَ ، لَكِنَّنا سَنَعودُ .»

وَتَرَكَ لَنا الرُّبّان ليتلتون بَعْضًا مِنَ الأشْياءِ الَّتي تَشْتَدُّ حاجَتُنا إلَيْها ، وَ وَعَدَ بِإرْسالِ أشْياءَ أخرى نَحْتاجُ إلَيْها . وَأعْطَيْناهُ ما لَدَيْنا مِنْ لآلِئَ لِيَبيعَها لِحِسابِنا في لَنْدَن ؛ لِدَفْعِ نَفَقاتِ تَعْليمِ فِرِتْز ، وَثَمَنِ ما نَحْتاجُ إلَيْهِ مِنْ أشْياء .

وَالآنَ يَجِبُ أنْ أتَوَقَّفَ ، فَالزَّوْرَقُ يَنْتَظِرُ .

« وَداعًا ، يا بُنَيَّ ، وَداعًا ، يا جيني ؛ حَتّى نَلْتَقي .»

المغامرات المثيرة



مكتبة لبنان ناشرون ش م ل